الطبعة الخامسة

هند والعسكر

بدريّة البشر

دار الساقي

بدريّة البشر

هند والعسكر





لوحة الغلاف للفنانة التشكيلية السعودية تغريد البقشي

www.bagshiart.net

الطبعة الأولى، دار الآداب 2006
الطبعة الخامسة، دار الساقي 2013

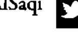
ISBN 978-1-85516-668-4

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342 بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

في حال وجود أي تشابه في الأسماء والأحداث مع شخصيات وأحداث حقيقية، يكون ذلك من باب الصدفة البحتة وغير المقصودة.

(١)

فتحتُ طرف الستارة لأطلَّ على الشارع المقابل لنافذتي، التقطَتْ أذني أصوات الأطفال الممسكين بأيادي آبائهم وهم ذاهبون إلى المدرسة.

مرَّ باص مدرسة البنات ذو اللون الأصفر سريعًا، يحمل معه فتيات مجلَّلات بعباءات سوداء، ثم مرَّت حافلة أطفال أخرى يشاغب أطفالها سائق الحافلة بالصياح. كان الشارع يحتفي بندى المطر وإسفلته يلاعب رشَّه الناعم الخفيف ويستحمُّ بعيدًا عن لفح الشمس الساخنة في أول أيام الشتاء.

صوت أمي يحثُّ مي الصغيرة على الإسراع بالذهاب إلى المدرسة.

صفَّقتْ أجنحة الطيور في السماء تنشر يقظتها في الصباح المبكر على أشجار الرصيف. حبَّات المطر الخفيف تتساقط هتانًا.

تطلق بوابة الفجز غيماتها لترعى في حقل السماء الأزرق وتحيله إلى بياض. تتلحَّف الشمس شرشف الغيم وتستريح. يفور

الغيم في الأفق كبخار في آنية السماء، تمرح الغيمات الصغيرة مثل فقاعات صابون تتقافز.

حين يهطل المطر في نواحي "نجد" العطشى، يحتفل الناس به، تعتريهم حالة من جنون الفرح؛ فمن عادة المطر النجدي أن يكون رقيقًا وخفيفًا وشحيحًا.

حرَّكتْ رائحة المطر غصون قلبي اليابسة، فأوجعني تكسُّر غصونها في صدري. تساقطت أوراقها الجافة فرحًا، نفثت ذكرى لماضٍ بعيد وحزين. شعرت بضيق، فاغتسلت وصلَّيت ركعتين.

فتحت باب غرفتي وخرجت، نفثتِ القهوة رائحتها المنبعثة من المطبخ في وجهي، اشتعلتْ في البيت مثل حريق صيفيٍّ ساخن.

عموشة تحمِّص القهوة بنفسها، تضع حبوبها الخضراء في المقلاة الحامية، فوق النار، تقلِّب حبَّاتها حتى تسمرَّ. أهل نجد لا يحبون القهوة السوداء، يحبونها بنِّية خفيفة، كوجه بدوي لوَّحته الشمس. تطحن عموشة حبَّات القهوة قليلًا، تترك نصفها خشنًا، تقذف بمقدار فنجان واحد في إبريق الماء، فيتموج ماؤه على نار هادئة، حتى يغلي، ثم تضع مقدار نصف فنجان آخر من الهال المطحون في قلب القهوة التي تفور كروح عطشى للعناق، وهي تخطف قطع الهال الناعمة وتغمرها بالموج الأسمر، تلتهم موجاتها. تنتشر الرائحة الزكية للهال الثائر لتعانق المكان، تتقلَّب القهوة مع الهال في موج فائر حتى الفيضان. لا تمنح عموشة القهوة فورانًا كاملًا، فحالما يكاد الفوران أن يكتمل، تزيح عموشة

الدلّة عن رأس اللهب فتستريح القهوة وتركد. تعيد عموشة كعب الدلّة إلى رأس اللهب مرة أخرى، فتطيش القهوة بجنون آخر. يرفع الفوران قشور الهال اليابسة إلى أعلى في دورة جديدة، ثم يهبط. بعد ثلاث فورات لا أكثر، تطفئ عموشة رأس الفرن، ثم تسحب الدلّة من على سطح عين الفرن الساخنة، تهدأ القهوة، ثم تسكن دائخةً وتسبح في شذا اعتصارها المكتمل. تنتشر رائحة الهال في رؤوسنا، وبِولع ينتظر كل منا دوره كي تغسل القهوة مزاجه الصباحي من خيوط أحلام البارحة العكرة، إذ ينتشي مزاجنا ويتمدد تحت شلال حكايات القهوة المُرّة وحبّات التمر الحلوة.

معظم حكايات هذا البيت نُسجت في جلسات القهوة؛ يتخلّص شاربوها من قيود الوعي الصارم، وبعد الفنجان الثالث، ينهمر سرد الحكاية مرة تلو مرة، لكنها ليست الحكاية ذاتها. لا تحبُّ الحكاية أن تعيد نفسها أبدًا، فالراوية المتمرّنة لا تحب إعادة الحكاية بالتفاصيل ذاتها. فنُّ الرواية مهارة توارثها أهل بيتي، وكنت أول تلميذة تحب أن تصغي وتتعلم فنَّ نسج الحكايات وإعادة كتابتها من جديد على الورق. جرَّبت مرات نشرها في الصحف باسم مستعار. في البداية منعتني قلّة ثقتي بنفسي من إعلان اسمي، ثم خفتُ من ثورات غضب أخي إبراهيم المتدين الذي ما إن سيلمح اسمي منشورًا في الصحف حتى يشنَّ حملات حصاره على حياتي. دارت بيني وبينه معارك كثيرة بسبب كتابتي في الصحف، لم ينتصر فيها أحد غير الحكاية.

تاريخ نساء هذا البيت وُلد من حكاية وُلدت في فناجين القهوة.

لكل منهن حكاية في قلب فنجان، إن لم يجلبها الغيب معه صنعن الحكاية بأنفسهن يتداوين بها من مرِّ الزمان، فتطيب لهن الحكاية مع القهوة المُرَّة. كل واحدة منهن خرجت من رحم حبَّة هال طويلة، أودعت فيها حكايتها.

روت لي رفيقة أمي عموشة حكاية جدتي التي صنعها فنجان قهوة في صباح بكور.

خرج جدي عبد المحسن في صباح يوم مغبَّش وبارد باحثًا عن ناقته الشاردة؛ وجد باب سالم الضلعان مواربًا.

سمع دقات الهاون العالية تدور في قلب النجر، وحبَّات القهوة التي تتكسر في قاعه. تسرَّبت رائحة القهوة من منافذ الباب، وعبد المحسن عاقد الحاجبين، يشكو من سوء مزاجه الذي عكَّره ضياع الناقة وتوقه لقهوة صباح تفكُّ مزاجه. لم يقاوم رائحة القهوة. تسرَّبت في أخاديد رأسه بعنف. دق الباب وصاح:

- يا سالم.

رد ابن ضلعان:

- الله يحيِّيك، ادخل.

لفَّ عبد المحسن جناحَي عباءته الوبرية يتدفأ بها من برودة "مُربعانيَّة" قارسة. نفثت نار الموقد الشتوي دفئها في جسده المتوتر برائحة القهوة. نادى ابن ضلعان صائحًا:

- يا سلمى، عطينا الهال من عندك.

جاءت سلمى تمشي بفستانها الأخضر، وبُرقعُها يغطي وجهها. عيناها الضيقتان تلمعان بنظرة خجلى متّقدة. رفعتهما نحو عبد المحسن؛ كحلهما الأسود منح النظرة العجلى لمعة ذكاء لم يطفئها رماد الخجل. سكنت نظرتها اليِقظة قلب عبد المحسن السريع العطب، المفتون بالنساء. لم يفطن إلى ما استودعه عقله فيها. ضفيرتها الطويلة تتلوى على ظهرها وهي تمشي كحيَّة طويلة. صدرها النافر ينهض كحبَّتي رمَّان مدوَّرتين من تحت ثوبها الأخضر. كانت سلمى طويلة ونحيلة مثل حبَّة هال. عند طرف الباب، رمت بكيس مربوط إلى والدها ثم استدارت، وغابت وسط البيت. سمع عبد المحسن أصوات جلجلة نشاطها في البيت وهو يشرب قهوته. زال سوء مزاجه الصباحي، شعر بنشوة عارمة تنطلق من رأسه، هاجت أفكاره بطرب وخفَّة حلَّقا به في مدى سرمدي، وشعر كأن رجلًا آخر يتحدث بصوته من دون إذن منه، فرد جناحَي عباءته الوبرية. سمع نفسه يقول:

- هل تزوِّجني بنتك سلمى يا ابن ضلعان؟

أطرق ابن ضلعان وهو يحرِّك حبَّات الجمر في الموقد:

- ما يخالف، اشرب فنجانك، وعقب القهوة نروح للشيخ ونعقد لك عليها.

سقط جواب ابن ضلعان في قلب عبد المحسن. أفاق لحظة

سماعه. شعر أنه ورَّط نفسه في فكرة هوجاء. لعن الساعة التي جاء فيها إلى هنا. لم يكن يومه مناسبًا لصيد الغزلان، فلماذا أطلق بندقيته على أول غزال مارٍّ؟ عرف عبد المحسن بكثرة زيجاته، لكنه يستعد لصيد بعيد في رحلته إلى الحجاز غدًا. وفي كل رحلة طويلة يخصُّ نفسه بزوجة؛ في "يُنبع الحجاز" حيث يذهب للتجارة له زوجة هي صفيَّة وله منها ثلاثة أولاد. وفي القدس له زوجة صغيرة اسمها فاتنة، ابنة لتاجر من العقيلات، دخل بها العام الماضي، وتنتظر مروره بها هذا العام. وفي منزله المجاور زوجته النجدية سعدى التي لن تصدِّق حكاية فنجان القهوة العابثة. سيؤخِّره هذا الزواج، وهو يستعد غدًا لرحيل بعيد ولا تناسبه إضافة زوجة جديدة إلى زوجاته الأخريات.

علَّق أمله الأخير على أن يكون الشيخ غائبًا كي يهرب من دون أن يتورط في عقد زواج جديد. لكن من سوء حظه ذلك اليوم أن الشيخ كان حاضرًا فزوَّجه سلمى.

عندما سمعت زوجته بالقصة، أشاعت بين الناس أن عبد المحسن تزوَّج بسلمى من دون رغبة. ومن سوء حظها أن الليلة التي دخل عبد المحسن بسلمى، أصبحت تلك المصادفة - كما قال عنها عبد المحسن فيما بعد - أفضل ما حدث له في حياته.

وشمَتْ سلمى قلبه بعشق طويل لم ينطفئ، حتى مماتها. أنجبت منه أمي هيلة وخالي عبد الله.

ماتت سلمى في سنة الرحمة مع من مات، وظلَّ عبد المحسن

بعدها يروي قصائد عشق يظن سامعها أنه لم يعرف من النساء سواها.

عموشة امرأة سوداء ضامرة العود ناحلة الأطراف. أذكرها منذ كنت طفلة. عيناها الصغيرتان الحادَّتان كعينَي صقر هما كل ما نراه من وجهها، فهي تلبس برقعها طوال اليوم ولا ترفعه أبدًا، حتى عندما تتمدد في فناء الدار في الظهيرة. يتعلق الأطفال بطرفه كلما رأوها، يشدُّونه عنها، لكنها تضرب أيديهم ضربة خفيفة وتقول:

– اترك ستري يا ولد.

عندما جاءت عموشة لتعيش معنا بعد وفاة والدي، ظلَّت تصرُّ على إبقاء البرقع على وجهها، وتنام في الظهيرة على الوسائد على أرضية الصالة وبرقعها مسدل على وجهها مثل شراع نافذةٍ مسدل على الدوام، وحبل البرقع مربوط خلف رأسها لا تفكّه أبدًا. دارت مي الطفلة الصغيرة حولها فأطلت عموشة من تحت البرقع، وظنَّت مي أن عموشة تستخدم البرقع قناعًا لإخافتها واللعب معها. طلبت منها أمي بحسم:

– ارفعي برقعك يا عموشة، أخفتِ البنت.

قالت عموشة:

– ياختي والله إني ما أشوف من غيره، صار كنُّه عيوني!

اعتادت عموشة رفع البرقع بعض الوقت، لكنها ما إن تسمع

طرق الباب أو صوت رجل قادم حتى تعيده لسيرته الأولى وهي تقول:

- أحسُّ إذا شلته كأني عريانة.

نضحك كلما تحدثت عموشة من دون أن نفطن إلى أنها لا تقصد إضحاكنا، لكنها تسعد بذلك. تعيش حياتها وتتصرف معنا بخفَّة وعفوية، على عكس أمي التي تظن أن المرء يجب ألا يستسلم للمزاح، وأن المرأة يجب ألا ترفع صوتها لا بالكلام ولا بالضحك. لم آلف ملامح عموشة سريعًا حين رفعت برقعها؛ بدت ملامحها بالنسبة لي غريبة، أنفها الصغير المفلطح، فمها الواسع الدقيق، أسنانها الصفراء لكثرة شرب القهوة.

ولدت عموشة في قرية أجدادي، النجدية، حيث ولد جدي عبد المحسن وجدتي سلمى. لكن عموشة ليست من هذه القرية النجدية، فقد جاءت أمها من بلاد أخرى. لا تعرف عموشة عن بلاد آبائها غير القصص التي روتها لها أمها "نوير". رأيت والدتها في طفولتي قبل أن تموت، وكنت في السابعة من عمري، حين ذهبنا لنحضر عرس قريب لنا هناك. الجميع ينادي أم عموشة "نوير" الضريرة بـ "جدة نوير". أنا أيضًا ناديتها كذلك من دون أن أعرف لماذا! استغربت أن أنادي امرأة سوداء بجدة نوير، لكنني اعتدت أن أسمع الجميع يناديها بذلك اللقب، صغيرًا كان أو كبيرًا. سكنتْ نوير دارًا صغيرة في طرف القرية، بجانب البئر التي تدور حولها الأساطير. شاع في القرية أنهم وجدوا واحدًا

من رجال القرية وقد علق بإزاره في الليل فيها واستيقظ الجميع على صياحه، فانتشلوه منها. تعرف نوير الطريق إلى بيتها وإلى بيوت القرية جميعها، وتمشي وحدها من دون دليل سوى عصاها تتحسس بها الطريق والأبواب. كل بيوت القرية تشرع أبوابها طوال اليوم للشمس والناس، ويرحِّب الناس بجدة نوير، تنفرج أساريرهم حالما يسمعون صوتها يسبقها صائحًا: يا أهل الدار!

أخبرتني عموشة عن الرجال الملثَّمين الذين اختطفوا نوير في زمن غابر من أقاصي الساحلِ العُماني. كان عمرها آنذاك سبع سنوات. وخطفوا أيضًا أطفالًا كثيرين. حملوهم في أكياس من الخيش ظلوا ينامون فيها كل ليلة على مدى شهر كامل. أما في النهار، فكانت أقدامهم تُقيَّد بالحبال لإعاقتهم عن الهرب، فلا يتجاوزون خطوتين. كانوا يطعمونهم خبزًا يابسًا وماء، وتمرًا جافًا في أحسن الأحوال. وبعد ليال من الترحال المضني على ظهور الجمال، لم تعد نوير تذكر صوت أمها الحبلى، وصارت وجوه إخوتها الذكور أطياف ذكرى موجعة يغصُّ بها قلبها ويقف لها طعامها في حلقها. صارت تطرد تلك الذكرى لتأكل من دون ألم، وتعمل كثيرًا لتنسى. لكن أحلامها ظلَّت كل ليلة تسبح في بيتهم القديم، وبئر الماء السحري في قريتها، المسكون بالجان والعقارب. ويخيَّل لها أحيانًا أنها تسمع غناء والدها، كما عندما كان يغنِّي على سطح دارهم، وتسمع أصوات لعبها مع الصغار.

باعها تجار الساحل إلى جدي عبد الرحمن. أطلق عليها اسم نوير وهو تصغير "نورة". لم تعد تذكر اسمها العُماني. استخدمها

جدي كعبدة فقط، ولم يعاشرها كزوجة، ثم زوَّجها بعد عامين بعبد آخر كان يعمل عنده اسمه جوهر، لتلد له عبيدًا جددًا.

أنجبت ستة أبناء وابنة واحدة هي عموشة، عاشوا مع أقرانهم من أبناء عبد المحسن، لكن نصفهم مات في سنة الرحمة، في الربع الأول من القرن التاسع عشر، مع من مات في قرى نجد حين داهمها الطاعون. عاشت عموشة النحيلة تعاند الموت وتتصدى له لتكون لنوير فيما بعد ضوء عينيها، وعصاها، تتوكأ عليها وتهشّ بها على أحزان عمرها الطويلة.

تخاف عموشة كثيرًا من الرجال، حتى إنها حدَّثتني عن آثار قرصاتها لأفخاذ بناتها لتمنعهن من الاقتراب من الرجال.

قالت لي:

– يا بنتي الرجل مثل الكلب، إذا شاف المرأة غاب عنه كل شيء وسال لعابه.

أضحك من خوف عموشة، الذي بدا لي غير مفسَّر إلا بشعورها المتدني بنفسها. أقول لها:

– يا خالة عموشة، أنا أعمل مع رجال كثيرين في المستشفى، ولا يحدث لي كما تتخيلين.

قالت تعاندني:

– الرجال مختلفون عن بعضهم البعض؛ قد تبتلى المرأة برجل

لا يخاف الله ولا يخجل من الناس.

- حينها سأعرف كيف أردعه، معي جهاز كهرباء يجعل الرجل يشلُّ في مكانه.

نظرت إليَّ عموشة وكأنني كشفت لها عن موهبة سحرية، ثم ظنّت أنني أسخر منها. ابتسمتْ وأظهرت لي أسنانها الصفراء ولثّتها السوداء، ثم قالت وقد بدأت تصدِّقني:

- والله يا بنتي أنتم بنات هذا الزمان تخوِّفون مثل الرجال.

أخبرتني عموشة ذات مساء، وقد داهمها الضيق، عن ذلك الشاب، جار جدي، الذي لحق بها يومًا عند بستان عمها جبعان.

كل رجال القرية أعمامها، لا تجرؤ على مخالفتهم، ويحق لكل عمٍّ لها أن يخبطها على رأسها أو يلاحقها بغزل مستتر أو يدسّ يده في فخذها، وهي تفرُّ هاربة منه خوفًا من والدتها التي تعاقبها لو اشتكت من هؤلاء الأعمام البذيئين.

كان اسم الشاب الذي لحق بها "عبيد". تذكر وجهه جيدًا. كانت له عين تنصرف عن الأخرى في حَوَل ظاهر. قد يكون هذا الحَوَل في عينيه هو الذي غرَّر بها، فلم تدرِ في أول الأمر أنه يقصدها، كما قالت لنفسها حين أخذت تبحث عن السر الذي جعلها تتصرف كدجاجة خاملة حاصرها ديك جسور. رأته وهي في منتصف تسلُّقها للنخلة، تقطع الرطب في عصرية يوم خريفي يبرد هواؤها بعد الزوال. لم تشعر بقدومه، أفزعتها صورة قامته

وهي تظهر في الظل المقابل للنخلة، وأدركت على الفور أن هذا التسلل الحذر سيجلب معه ما يخيف. جلس ينتظرها في أسفل النخلة، شعرت بالخطر، قالت له وصوتها يتوسل:

– ابتعد عن طريقي يا عمي، لأوجعك.

قال لها وصوته يقطر احتيالًا:

– لا تخافي سأساعدك.

صاحت بنبرة قوية وجازمة:

– لا يا عمي، لا يا عمي، بس وخر عن الطريق.

كانت تفضل أن تظل واقفة في منتصف الشجرة حتى يقرّر هذا العم الأحول أن يتركها وشأنها، لكن خشب النخلة الذي انغرس في قدمها وأوجعها أضعف قدمها فزلّت، خبطت ركبتها بأحد أسنان النخلة فجرحت، وجدت مؤخرتها بين يدي عبيد، جرَّها نحوه، وكانت يداه اللتان طوّقتاها من الخلف أقوى منها، خافت أن تصرخ ويلومها أعمامها على افتعال الفضيحة. قد يقتلونها إن عرفوا ما حل بها، قد يقوم إمام المسجد – الذي يلاحقها كلما رآها تدخل المسجد من دون أن تضع على رأسها غطاء – بإصدار أمر بقتلها، ينفِّذه هو، وعيناه كعادتهما حمراوان مثل جمر.

حاولت أن تقول للعم بصوت منخفض، تتوسل إليه... يا عمي أنا داخلة عليك، في وجهك، ستذبحني أمي إن عرفت. لكن عبيد لم ينصت لها، حتى إن بؤبؤ عينه الثانية صار يختفي وهو يدّس

يده في صدرها ويعض عليه. لم تعد تذكر من جروحها إلا جرح ركبتها، لأنه ظل شهرًا كاملًا من دون أن يلتئم، بينما دفنت قصة عبيد في بئر خوفها من الرجال، حتى إنها ما عادت تذكر كيف قامت ونفضت التراب عن ثوبها.

لم تدمع عيناها دمعة واحدة؛ شعرت بماء مالح يدخل إلى حلقها، بلعته وقرَّرت بينها وبين نفسها أن ما من أحد رآها أو سمعها، فلماذا تعرِّض نفسها للعقاب؟ في الليل لم تنتبه عموشة إلى أن بقعة من النزف الأحمر التصقت بثوبها من الخلف. رأتها أمها، وهي نائمة، ثم شعرت بيد أمها تسحب ثوبها، وتنزعه عن أفخاذها، وتسحبه من رجلها لتوقظها، وتجلدها، فاعترفت لها بأنها ليست هي السبب، وأن عبيد الحمار هو الذي كتم أنفاسها وفعل بها فعلًا لا تدري ما هو، لكنه يجعل الدم يسيل من بين فخذيها وركبتها. قالت لها:

- ضربني عمي عبيد، وأنا صغيرة، ويش أسوِّي؟!

تزوجت عموشة من فهيد، راعي الغنم الأسمر، العبد الذي أعتقه ابن حامد. فهيد رجل فقير الحال، يرعى أغنام القرية بأجر زهيد. ظلت تشكو من فقره وكسله، فأطعمته نوير مع ابنتها وأحفادها بدلًا من أن يطعمهم ويجبر عوزهم. أضاف إليهم كل سنة طفلًا جديدًا، لأن عموشة تضعف لندائه في ليالي الشتاء الباردة، ويسهل الضحك عليها في أحراش البساتين حين تخلو من عمالها، حيث لا ينتبه لغزله الجائع أحد.

عاشت عموشة ذات البشرة السوداء متآلفة مع والدتي ذات البشرة الحنطية نمط حياة واحدًا. بدتا أختين غير شقيقتين، منسجمتين كرفيقتَي صبا، تجمعهما ثقافة واحدة، والمحرَّمات ذاتها، والأعراف ذاتها. كانتا كلتاهما من الطينة ذاتها، لا تختلفان إلا في لون البشرة والمزاج.

تحب عموشة الأحاديث الطويلة التي تكرهها أمي التي ترى أن الحديث لغو يقود للوقوع في الإثم، ولهذا تقوم بالاستغفار المستمر. تطرب عموشة للغناء، وترقص أحيانًا حين تدخل غرفتي وتسمعه، لكن أمي تهددني كلما سمعت صوت محمد عبده يغني في غرفتي، قائلة:

- تذكَّري أن الله يصهر حديدًا في آذان من يسمع الغناء!

أدركت عموشة أن تاريخًا جديدًا يختلف عن تاريخ أمِّها وأبيها قد حلَّ، عندما أقرَّ الملك فيصل قانون تحرير العبيد، في ستينيات القرن العشرين. حينها، ركض جوهر ومعه زوجته نوير، بعد أن انطفأ نور عينيها وأكل وجهها بقايا الجدري، نحو عمه عبد الرحمن، وسأله:

- ما الذي يعنيه هذا القانون؟

رد عبد الرحمن:

- أنتم منذ اليوم أحرار.

لم ينتبه جدي لنظرة الهلع في عيني جوهر وهو يقول:

- أين نذهب يا عمي ونحن لم نعرف غير هذا البيت وغير هذا البستان؟

لم يجد جدي جوابًا. كان كل شيء مربكًا لهم، وهم لم يعرفوا حتى اليوم ماذا يفعلون بلا عبيدهم، لكن القانون حاسم: يعوض المالك عن ثمن العبد إن لم يكتف بالأجر والمثوبة عند الله.

نظر إلى نوير وابنتها عموشة وهي طفلة صغيرة في التاسعة تقريبًا، قال لهما:

- أنتما اليوم حرَّتان.

أدارت نوير ظهرها لجدي وهي تجوس بعصاها الأرض، وذهبت تتمتم بكلمات لا تزال عموشة تذكرها:

- يا والله الحرية "المحقى"، كلها برد وجوع.

كان شتاء تلك السنة قارسًا. سأل جوهر عمه:

- وين نروح يا عمي؟ دعنا نشتغل عندك يا عمي.

- بماذا تشتغلون؟ ويش أعطيكم؟

- راضي بلقمتي يا عمي، وبالدار الصغيرة التي ننام فيها.

- ما يخالف... ما يخالف.

دخل أبناء عموشة المدارس ولبسوا مراويلهم المدرسية، تمامًا مثل أبناء عمومتها في القرية، فأدركت حينها فقط أنهم لم يعودوا

عبيدًا، وعرفت ما كانت تعنيه كلمة العم عبد الرحمن ذلك اليوم: "أنتم اليوم أحرار".

احتاجت وقتًا طويلًا لتفهم معنى الحرية، لكنها لم تعرف يومًا طعمها؛ عاشتها اسميًا فقط، إذ يصعب على من كان عبدًا أن يتخلص من عبوديته حين يتجاهلها الآخرون.

ظلت الفتاة الصغيرة ذاتها، يقف شعر رأسها وترتجف خوفًا كلما ناداها أحد من الأعمام والعمات، فتهب واقفة من دون إرادتها.

- سمٍّ يا عمي، سمِّي يا عمتي.

لا تجرؤ أبدًا على رفض طلب لهم، حتى ولو كانت ترتعش من الحمى، أو يقطر منها دم النفاس؛ تنهض من فراشها لتوقد التنور وتخبز أو تحمل خروفًا وترفعه من القدر، تطبخ عشاء أفراح أعمامها وولائمهم حتى وهي حرة، وتأخذ أجرها ثيابًا في العيد، أو قروشًا فضية، أو أي شيء من حاجات المنزل الفارهة، كالهال والقهوة... وفي ما بعد، حين صارت أكياس الأرزّ تصلهم من الرياض، كانوا يمنحونها قدرًا ممتلئة من الأرزّ تطبخه في بيتها، لتطعم أولادها، الأحرار.

أبناؤها تمتعوا بصداقات أبناء القرية، بل إن بعضهم إخوة لهم، لأن عموشة أرضعت نصف أبناء القرية، ولولا البشرة السوداء لأبنائها لما شعروا بأن هناك فرقًا بينهم وبين أترابهم. كان عناد

ابنتها سعدى واستهتار ابنها فراج بأوامر أهل القرية من الكبار يثير حنق بعضهم، فهم لم ينسوا بعد أن آباء هؤلاء كانوا عبيدًا، واعتبروا أن تحريرهم لا ينتهي بوثائق التحرير التي أصدرها الملك، فهم كانوا عبيدًا وسيظلون عبيدًا. لم تشعر عموشة بالحرية إلا عبر أبنائها؛ كان يكفيها أنها كانت جسرهم إليها، فرضيت بالثمن.

كُثر من أبناء القرية ينادونها "أمي" من دون شعور بالعار. ونحن، أبناء المدينة، حين نزور القرية، ونسمع أبناء خالتي وأبناء عمتي ينادونها كذلك، نعجب من هذه الأمِ السوداء التي يفرح أقربائي بزيارتها ويهشُّون فرحًا لاستقبالها. تُحضر لها النساء قطعًا من القماش الملون، أو عباءة سوداء من الحرير، أو كنزة من الصوف هدايا قدومهن من الرياض. رأيتها مرة تقبِّل خالي، فأخبرتني والدتي أن عموشة هي أخت لها من الرضاع لأن نوير أرضعتها وأرضعت خالي عبد الله مع أبنائها.

نزح فراج بن عموشة إلى الرياض، وعمل موظف سنترال في بيت أحد الشيوخ، فألحَّ على والدته بالقدوم إليه، لكنها رفضت. أحضرها يومًا عندما قال لها الأطباء في مستوصف القرية إن علاجها في الرياض.

بيت ابنها فراج، في حي سكيرينه حيث لا تعرف أحدًا، صار سجنًا زاد من مرضها. وعندما جاءت إلى عزاء والدي لتعزي أمي، نامت مع أمي، ليالي العزاء كلها، في غرفة واحدة، فطلبت إليها أمي أن تبقى معنا في البيت. منذ ذلك اليوم وعموشة رفيقة

أمي لا تفارقها. تذهبان إلى صلاة التراويح في مسجد الحي، وإلى مواعيد الأطباء عند فحصهما لنسبة السكر في الدم وقياس الضغط المصابتان بارتفاعه، وإلى أعراس بعض أقاربي، وفي بعض زيارات الضحى حين تجتمع النساء عند إحداهن في الحي. عموشة صندوق حكايات أسرتي ومستودع أسرارها. لولاها لما كنت عرفت شيئًا عن أهلي. فأمي صارت تميل إلى الصمت عندما كبرت، إذ إنها استهلكت كل طاقات صوتها في الصراخ عندما كنا صغارًا، ولم تعد تفتح فمها إلا لكي تنتقد أبناء هذا الزمان العجيب وتستغفر. تبدو أمي بقسوتها امرأةً قدَّت من صخر. وعندما شكوت لعموشة مرة قسوةَ أمي، وهي تدكُّ بدبّابتها ضلوع حزني وضعفي، أنكرت عموشة قولي رأفة بي وحنوًا عليَّ، وأخذت تعزِّيني بكلماتها قائلة:

- لا تلوميها يا بنتي، أمك مسكينة.

- مسكينة!

صحتُ في وجه عموشة مستنكرة:

- تقولينها صادقة؟

آخر الأوصاف التي تنطبق على أمي هو أنها "مسكينة". فهي دائمة الصراخ والتسلط. لم تُظهر لنا يومًا ضعفها، ولا اشتكت لنا من عجزها. لم أرها يومًا تتعلق بحاجة دنيوية أو تأسف لفقدها، أو تتلمَّظ من الحرمان. قلت لعموشة:

- أمي مسكينة؟ ألا ترين كيف تهشُّنا بجفاف كلما توددنا إليها

أو حنَونا عليها؟ ألم تري كيف تفضِّل إخوتي الذكور وتعاملهم بوداعة، في حين تقسو علينا نحن البنات الضعيفات؟ أمي تكرهنا لأننا... بنات؟

كانت عموشة تردد كلماتها وتسرح بعينيها في ماضٍ بعيد:

- يا بنتي، لا تلوميها، الزمان الذي قسا عليها، قسَّاها، لكنها... مسكينة.

أمي امرأة جبارة، وهي ليست مسكينة في نظري؛ لم أرها يومًا تدمع، وحتى عندما مات أبي، حرصتْ على إخفاء دمعها عنا...

ظنَّها البعض تشفق علينا من دموعها، لكننا نحن، أبناءها، نعرف أنها تحب أن تعلِّمنا كعادتها درس "الاحتساب عند المصائب"، وأنَّ الصبر دلالة على إيمان المسلم الحقيقي.

أعترف أن أمي امرأة ذكية، هذا ما أعرفه جيدًا، بل إنني، وأنا صغيرة، ظننت أنها تملك قوى جبارة سحرية لأنها تكشف كل ما نفعله، تكتشف كذبنا عليها، وتعرف سر ما نخبِّئه. لم تذهب أمي يومًا إلى المدرسة، لكنها كانت أحيانًا تكتب واجبي المدرسي عندما كنت في الصف الأول.

تكتشف، وهي ترتِّب لي دروسي ليلًا، أنني لم أحلَّ واجب المطالعة، فتشدُّني من شعري وتفتح دفتري وتضع رأسي الصغير فيه وتقول لي: هيا! إكتبي!

أنبطحُ على الأرض بين أغطية الفرش في مجلس البيت الوحيد

الذي كان غرفة طعامنا وجلوسنا، وفي الليل غرفة نوم العائلة، بينما يظل مجلس الرجال، المرتّب والنظيف، مغلقًا، وللضيوف فقط.

أضع رأسي على زندي الصغير وأهمُّ بكتابة الواجب. كانت الحروف المنقَّطة السوداء طريقًا طويلًا وشاقًا، أفكِّر أن الليل كله لن يكفي لكتابتها، أكتب السطر الأول من حرف الباء، أشعر، والنوم يرشُّ رمله في عينيَّ، أن النقطة تحت حرف الباء قد ضاعت، فأرسم صحن الباء فقط، ويحدِّثني عقلي أن أترك النقطة حتى صباح الغد. كان النوم، وقلمي في يدي والدفتر مخدَّتي، هو الصورة التي ظلَّت في ذاكرتي كأجمل تعبير عن نوم الأطفال السعيد، صورة تشبه الحلم، صورة أمي وهي تدعو عليَّ أن يقصف الله عمري وتصفني بالكلبة الجرباء لأنني أترك دروسي وأنام.

كان فرحي عظيمًا في تلك المرة الأولى، حين فتحت دفتري في الفصل ذات صباح ووجدت الواجب محلولًا؛ شعرت أن أمي، رغم الكدمات الصغيرة التي أحدثتها قرصها في فخذي في الليلة التي سبقت، هي أجمل الأمهات، أمي الساحرة، التي لم تذهب إلى المدرسة، كتبت عني الواجب.

أوه! يا أمي العظيمة، كم أحبك!

صدَّقتُ وأنا صغيرة كلَّ ما تقوله أمي لي، فهي تعرف الكثير، حتى عندما أخبرتنا أن لبس التنورة حرام، ولبس المشدَّات الصدرية حرام. ولكي تبرهن لنا أن ما تقوله صحيح، سردت لنا

قصة الرجل الذي ماتت ابنته يومًا، فذهب ودفنها في المقبرة، لكنه حين عاد إلى البيت، اكتشف أن مفاتيح سيارته سقطت منه في قبر ابنته وهو يدفنها. عاد الرجل إلى قبر ابنته ليستعيد المفاتيح، وحين فتح القبر، وجد النيران تشبُّ، فحسب، في مكان خيوط المشدِّ على صدرها، فعرف الناس أن هذا عقاب الله للبنت التي كانت تلبس المشدَّ الصدري.

لم نفطن ونحن صغار إلى الكثير من التناقضات في قصص أمي، إذ كنا نظن أنها تقصُّها علينا لتسلِّينا لا لتخوِّفنا؛إذ فكيف يعود الرجل إلى قبر ويفتحه؟! فأخيلتنا يعميها الرعب، تتشبَّث بفحوى الحكاية إذعانًا للعقاب، وخوفًا من أن نكون الفتاة ذاتها التي تعذِّبها النار منذ اللحظة الأولى لدخولها القبر بسبب مشدٍّ صدري.

لم تلبس أمي المشدَّ الصدري أبدًا، و لم تضع في ثيابها السحَّاب الذي كان أيضًا من المحرَّمات عندها، وعليه تنسج حكاية أخرى لفتاة أخرى يشبُّ الحريق في جسدها ولا يلاحق إلا مجرى انزلاق السحَّاب على ظهرها.

تستخدم أمي القصص التي تُروى بين الناس لتحذيرنا وحثِّنا على تجنُّب العقوبة، وخصوصًا عقوبة النار، وتذكِّرنا بأن نار الدنيا ما هي إلا نتفٌ يسيرةٌ من نار الآخرة العظمى، حيث يغيِّر الله أجسادنا آلاف المرات، كلما ذاب جلد أبدله بجلد آخر.

كان الله يشبه في مخيلتي وجه أمي، فهو غاضب على الدوام

علينا، ويتوعَّدنا بالحريق الذي كان على الغالب يشبه قَرص أصابع أمي التي تولجها في باطن أفخاذنا الطرية.

أتذكر العديد من القصص التي ظل رعبها يحفر أخاديده في قلبي، وتعبر خاطري وأنا كبيرة، فتبعث القشعريرة ذاتها التي شعرت بها وأنا صغيرة. أذكر قصة الفتاة التي خطفها اللصوص ليفعلوا بها الفاحشة. كانت أمي وعموشة لا تأتيان على ذكر الفاحشة إلا بلفظ مستتر "فعلوا بها" و"كسروا ظهرها". لكن الحكاية لا تنتهي بهذا الشكل التقليدي، فقبل أن يقتلها الخاطفون تطلب إليهم أن تدخل الحمام لتقضي حاجتها، ثم تكتب رسالة لأهلها باسم من خطفها، تذكر فيها أوصافهم، ثم تدسُّها في الجورب المدرسي الأبيض الذي تلبسه.

تعثر عليها الشرطة مقتولة في الصحراء، وعند غسل جسدها الصغير والبريء يعثرون على رسالتها الأخيرة، فتقبض الشرطة على اللصوص، ويعاقبونهم، وتنتهي القصة بتحقُّق العدالة وموت الأشرار. يفهم عقلي الصغير أن الفتاة يقع على عاتقها أيضًا مسؤولية أن تكون فطنة وذكية، عليها واجبٌ لا ينتهي بكونها ضحية صغيرة تُختطف وتُغتصب وتُقتل، بل عليها أيضًا، قبل أن تموت، وهي تواجه كل هذا الرعب من خطف واغتصاب وقتل، أن تفضح خاطفيها وتسهِّل العثور عليهم، ما يظهر براءتها ويوقع اللصوص في شرِّ أعمالهم. أتذكَّر قصة الفتاة ذات الجورب الأبيض، كل ليلة قبل النوم، وأرتجِف وأبول على نفسي في فراشي؛ أحاول ألا أنسى واجبي حين أُخطف بأن أفضح خاطفيَّ، لكن

الرعب الذي يسكنني يتمحور حول سؤال واحد لا يتعلق بكيفية حماية نفسي من الخطف، بل: ماذا لو خطفوني في المساء حيث لا ألبس في العادة جوربًا؟

أما قصة "اللص الأسود المدهون" التي حلّت تاليًا محل قصة الفتاة ذات الجورب الأبيض، فقد ظلّت تروّع مناماتي ليالي طوالًا رغم أنها بدت مثل نكتة تنشر النساء حلقاتها المتتابعة حين يجتمعن عند والدتي في العصرية، يضحكن وهن يروين كل يوم حلقة من مسلسلها. كان "اللص الأسود العاري المدهون بالزيت" كل يوم يقفز إلى بيت من بيوت حارة مجاورة لحارتنا، بعيدًا عن بيوتنا، حيث لا أحد يؤكد أنه شاهده، أو تأكّد من صدق الرواية.

تتندّر جارات والدتي، ويتسلّين بقصص اللص الأسود المدهون، الذي صار مشهورًا مثل نجم مسلسل تلفزيوني، وبحكايات سرقاته المتعددة. شاعت قصته بين الناس: لص أسود يقفز إلى بيوت الناس ليسرقهم، ولم يتمكّن أحد من القبض عليه لأن اللص الأسود يدهن جسده العاري بالزيت، ويقفز إلى داخل البيوت عاريًا من الثياب وجسده يلمع في الليل البهيم، فإذا ما شعر به أحد ولاحقه لا يستطيع أن يمسك به، وإذا تمكن منه فإن يديه تنزلقان عن الجسد الزلق. كانت أمي وجاراتها يضحكن كثيرًا كلما سمعن حلقات اللص الأسود العاري المدهون، ولا أدري لماذا! ربما لأن صورة رجل أسود وعار من ثيابه بأعضائه الذكورية المتراقصة تبعث على الضحك بين جارات أمي، إذ يخفضن أصواتهن خجلًا عند ذكر الأعضاء الجنسية، ولا يسمّينها بأسمائها الصريحة، فهن يقلن،

إشارة إلى العضو الجنسي، "حق الرجال"، و"حق المرأة". رغم الإشارات الغامضة التي تمررها جارة أمي نورة وبذاءة بعض ألفاظها السوقية، كان الخجل هو السمة المميزة التي تحظى بتقدير كبير عند جارات والدتي. حتى لو زاد عن حدِّه كما لدى لطيفة، إحدى جارات أمي التي نزحت حديثًا من قريتها شرق الرياض، والتي كانت تخجل من ذكر اسم زوجها صراحة فتسميه "هو"، وتقول: "هو ذهب" و"هو جاء"، وعندما تسألها النساء عمَّن تتحدَّث، تردُّ عليهن مستغربة سؤالهن: هو!

– من هو هذا "الهوَ"؟

فتضيق بإلحاحهن، دافعة بهن عن حصارها لما لا تجسر على ذكره:

– هو.

فيضحكن عليها وعلى خجلها وسذاجتها غير المعهودتين بينهن.

مع الوقت، وحين ملَّت لطيفة من تندُّر جاراتها، وبعد أن ألِفت صراحة المدن وجرأة نسائها الغريبة عنها، سمحت لنفسها ببعضٍ من الجسارة، خصوصًا بعد أن أنجبت من زوجها أولادها الخمسة، صارت تسمِّي زوجها "أبونا" بدلًا من "هو"! لكن جاراتها لم يسمعنها أبدًا تذكر اسمه الصريح.

في المدرسة، عرفت قصصًا أحلى من قصص "الفتاة ذات

الجورب الأبيض"، و"اللص الأسود المدهون". القصة الأولى لم تحمل من الرعب ما يحرِّض على اندفاع الأدرينالين في الجسد كما في قصص جارات أمي.

لفتتني قصة "سندريلا" في كتاب ملوَّن يتعلق بين يدَي صديقتي تقرأه في فسحة الدراسة، وهي تقضم "سندويشها" بمتعة شديدة. كانت تقرأ القصة باهتمام، كمن يقرأها للمرة الأولى، في حين كانت المرة العاشرة. اقتربت منها ووضعت رأسي معها في الصفحة، وأخذت أقرأ مثلها باهتمام شديد وشغف بتسلسل الحكاية الجميلة.

شقَّ صوت الجرس قلبي نصفين قبل أن أنهي القصة. كنت منغمسة في القراءة حتى نسيت أين أنا. لأول مرة أشعر بقساوة هذا الشعور وأنا أخرج من نصف القصة من دون أن تنتهي. سألت صديقتي، وقلبي يقفز أملًا وخوفًا وشوقًا، الاحتفاظ بالقصة لمعرفة نهايتها:

– هل يمكنني أن آخذها معي إلى البيت؟ أرجوك... أعطيك ما تشائين.

ضممتُ الكتاب إلى صدري وقسمات وجهي كلُّها رجاء.

ردَّت عليَّ صديقتي بلا مبالاة قائلة:

– طيِّب، احضري لي إذًا قصة بديلة؛ تسلفيني قصة، أسلفك قصة.

أرادت صديقتي نوال أن تدخل معي في برنامج تبادل القصص، قلت:

- حسنًا اتفقنا.

اضطررتُ إلى أن أكذب عليها، فليس في بيتنا قطعة ورق واحدة غير كتب المدرسة، حتى عندما تحتاج أمي إلى ورقة لتكتب رقم هاتف جارتها تأخذها من دفاترنا القديمة التي تحتفظ ببعضها لأن بعض أوراقها لا تزال بيضاء، ما اضطرني إلى استعارة قصة أخرى من جوهرة وأعيرها لنوال بعد أن وعدت جوهرة بأن أعطيها قصة "سندريلا" حين أفرغ منها.

كنت أتخيَّل نفسي مثل سندريلا، يتيمة من دون أم. كنت أرى في زوجة أبيها الظالمة صورة أمي التي تضربني وتكلفني بالأعمال الشاقة في المنزل. كنت أطمح دائمًا إلى الخلاص من هذا المنزل الذي لا يحبني فيه أحد. عندما عرفت أن الأمير الشاب هو الذي خلَّص سندريلا من عذاب زوجة أبيها، قررت أن أبحث بدوري عن أمير شاب أحبه، فوجدت ابن جارنا الوسيم سالم الذي يكبرني بعشر سنوات، فهو الوحيد الذي يمكن أن يكون في سن الأمير. كان قلبي يخفق كلما مرَّ سالم أمام باب منزلنا وأنا واقفة أنظر إلى الشارع. ينظر إليَّ ويبتسم، وأنا أمدُّ قدمي مرة وأنا ألبس الحذاء ومرة من دونه، فهو الذي سيلبسني الحذاء الذهبي. ظل حبي لسالم ملتهبًا بالخيال الطفولي أيامًا، حتى جاء اليوم الذي كرهته فيه وكففت عن حبه.

ذات يوم، جاء موعد عودة سالم إلى البيت عند الثانية بعد الظهر، ووقفت كالعادة أنتظره وأنا ألعب عند الباب. وصل سالم، تلفَّت يمينًا ويسارًا، رأى الشارع خاليًا، فأرسل لي قبلة في الهواء، فقفزت رعبًا وصرخت فيه وأنا أهرب: يا حيوان!

في الأسبوع التالي، وجدت عند جوهرة قصة أخرى عنوانها "ليلى ذات الرداء الأحمر". لا أدري إن كان شغفي الجديد هو من يفتِّش عن قصص أو هي صدفة قدرية راحت تلقي في طريقي بالقصص وتجرُّني معها إلى مستقبل غريب! أو إن كانت والدة ليلى حذَّرت ابنتها الشقراء النظيفة والوادعة على الدوام من الذئب. كانت ليلى تطيع والدتها وتحفظ تحذيراتها، لكن الذئب الشرّير كان يحوم حول ليلى، ويتبعها، ويهجم عليها من دون أن يفلح في إيذائها؛ فليلى تنجو من الذئب لأنها بنت مطيعة ومهذبة.

تمنحني نجاة ليلى من الذئب فسحة من الراحة كلما قرأت قصتها. أتنفس الصعداء وأقول: الحمد لله الذي نجّاها، الحمد لله، ماذا كان سيحصل لي لو أكلها الذئب؟

وأدعو الله لأن يأخذ الذئب الشرير.

نجاة ليلى وزواج سندريلا كانا حدثين سعيدين في حياتي. بعثا في نفسي الطمأنينة، فتوقَّفت عن التبول في فراشي أثناء الليل، ورحت أتمثَّل ليلى قبل النوم وأقفز في حارتنا التي كنت أتخيلها مثل تلك الغابات الموجودة في القصة، وأغنّي وأنا مرتدية ردائي الأحمر الجميل، مطمئنة إلى أن ليلى لن تموت كما الفتاة المسكينة،

الفتاة ذات الجورب الأبيض في قصة أمي، وإلى أن سندريلا سيخطفها الأمير الوسيم على حصان أبيض من دون أن تواجه رعب اللصوص كما في قصة "اللص الأسود المدهون"، أولئك اللصوص الذين كنت أراهم، منذ أن سمعت رواية أمي، في كل رجل يمرُّ من أمامي وأرتعب. صار الخطر مجرد ذئب لا يعيش إلا في الغابة، والغابة بعيدة، ولم أكن أرى الذئب إلا في الصور. لهذا أحببت القصص التي تجعل من الخطر شعورًا لذيذًا يبعث الأدرينالين في جسدي، يوتّرني، يلاحقني، يهددني... يأتي أبي ويقتل الذئب، ثم أعود إلى حضن أمي.

أنجو، فيهدأ جسدي، ويتمرَّغ في سعادة غامرة وكأن ما مرَّ بي حقيقة.

ربَّتْ تلك القصص في خيالي عوالم لما كنتُ لولاها قادرة على التخيُّل في ما بعد: عالم أكثر هدوءًا من بيتنا وأكثر سعادة، عالم مريح، لا تصرخ فيه الأمهات، ولا تُضرب فيه البنات، عالم مسموح فيه اللعب مع الأولاد، ولا تُعاقب فيه البنات ولا تهدِّدهن أمهاتهن بالقتل، عالم أحبُّ فيه شابًا وسيمًا من دون أن يخدش حيائي بقبلة في الهواء، بل يبتسم لي طوال الوقت، ويربت على شعري بحنان وحب آمنَين، ما شجّعني على قضاء وقت طويل في أحلام اليقظة، لساعات طويلة، ألهو فيها وألعب، وأحتار... هل أكون الفتاة الصغيرة التي تلهو وتلعب، مثل ليلى ذات الرداء الأحمر، أو شابة جميلة مثل سندريلا تعشق شابًا وتراقصه؟ وأحتار من أُحبُّ من الفنانين. هل أحب المطرب الوسيم خالد الشيخ الذي يغني في

التلفزيون، أو الممثل السوري حاتم علي، أو ابن جيران صديقتي نوال الذي كان في مثل عمري؟ ولأن أحلام اليقظة سهلة وممكنة، فقد كنت أوفِّر لنفسي وضعًا مريحًا، فأجمع كل الذين أحبهم في مشهد واحد، وأعطيهم الأدوار التي أختارها لهم.

في وقت من الأوقات كان خالد الشيخ يحتل مساحة واسعة من تلك الأحلام. كنت أحبه، وأهيم به، أتخيله في كل وقت، وتشرد بي الصور بعيدًا، إلى أن أنسى نفسي ومن حولي. حتى أمي انتبهت لحالي ذات يوم وأنا أتأرجح في حضن خالد الشيخ، أحضن المخدَّة وأقبض طرفها بين فخذيَّ، أغمرها بين ذراعيَّ، وأشعر بهواء ساخن يخرج من فمي إلى خدي ثم إلى رقبتي. لم أنتزع من حضنه إلا حين دار فوقع، وارتفعت قدمه بقوة لتخبطني على وجهي. صحوت من حلمي لأكتشف أن يد أمي تسحب المخدة من بين فخذَيَّ، وتخبطني بها، فكففت منذ ذلك اليوم عن لقاء خالد الشيخ في غرفة الجلوس، حيث ترصدني أمي، وصرت أقابله كلما نمت فوق السطح البعيد عن السطح الذي تنام فوقه أمي، فهي تراقب حتى أحلام يقظتي وتعاقبني عليها.

غيَّرتني تلك القصص الصغيرة. لم أعد الفتاة الهوجاء التي تحب اللعب. أصبحت فتاة مرهفة الحس، سريعة التأثر، حالمة، سريعة الغضب، سريعة الحزن. صرت أعزف عن اللعب وأتأمّل كل شيء. كنت أنظر إلى السماء فأرى في الغيوم عربة سندريلا والخيول التي تجرُّها، أرى الأسد في الغابات، والشجر، أرى شعر الأمير الطويل المنثور على كتفيه. كما صرت أفتح الإذاعة وأسمع غناء جميلًا

يذكّرني بحبي لخالد الشيخ وعبد المجيد عبد الله.

نَمَت في داخلي احتياجات جديدة لم أكن أشعر بضرورتها من قبل.

زرعت القصص بذورها في صدري، رشَّها مطر الرغبات العارمة، فنبتت أشجارًا كبيرة واسعة كالمدى، ينشقُّ قلبي حين تتحول إلى سراب كلما اقتربت منها، فألهث ركضًا إليها. عذَّبتني الاحتياجات التي طفت على سطح قلبي برؤوسها الشوكية. حاجتي إلى أم تحضنني وتحيطني بذراعيها حين أعود من المدرسة متعبة وكأنني عدت من الغابة، منهكة خائفة وقد طاردني الذئب. أحتاج إليها لتمرر يدها على شعري وتسقيني ماءً باردًا، وتذكر اسم الله على خوفي ليطمئنَّ قلبي الذي تتسارع دقَّاته، كما تفعل أمي مع أخي فهد حين يمرض.

لكن أمي تضربني كلما دخلت إلى المنزل لأنني أتأخر دائمًا في العودة، فقد يسرقني في الطريق مشهد صبية يلعبون "لعبة الورق المصوَّر" أو مشهد صبية يتبارون برشّ بعضهم بسائل "البيبسي" بعد أن "يفوّروه". مع الوقت توصَّل عقلي إلى معادلة وجدها عادلة، وعمل بها طوال عمر لهوي في الحارة، وهي أن يكون وقت لعبي متناسبًا مع القدر الذي سأحصل عليه من ضرب أمي، لذا كنت أحزن حينما تدخل البنات بيوتهنَّ باكرًا. أشعر بأن الضرب الذي سأناله لقاء ساعة لعب قصيرة مرّت سريعًا ليس عادلًا، لذا أجوب الحارة أحيانًا من غير هدف محدّد باحثةً عن

تكملة مبهجة توازي ببهجتها معاناة الضرب الذي سأناله بعد عودتي.

في حارتنا، لا تهتمُّ الأمهات عادة بغياب الأولاد عن البيت، ولا يحرصن على إدخالهم إليه باكرًا، من هنا نشأت العلاقات بيني وبين أولاد الحارة وصرت صديقة لهم. فأنا لم أجد سوى الأولاد يتمتَّعون مثلي باللعب أثناء أوقات فراغهم، مع فارق أنهم لا يدفعون الثمن غاليًا. ألعب مثلهم بالورق المصوَّر الذي يحمل صور فنّانين لم نكن نعرفهم في ذلك الوقت، أمثال إلفيس بريسلي وممثّل أفلام الكاوبوي كلينت ستوود. كما ألعب معهم لعبة القفز على الإطارات التي تجعل فستاني يرتفع كاشفًا عن ساقيَّ كلما قفزت من إطار إلى آخر. ثم صرت أركب وراءهم على الدراجة، وهو المشهد الذي كاد يقتل والدتي حين رأتني وأخبرت أبي عنه.

قالت أمي لأبي:

– لقد وصل بها الحال إلى أن تركب وراء سعيدان على الدراجة وتمسك به من خصره.

لم يردَّ أبي ولا اهتمَّ. صاحت به لتوقظه من غفلته وتزرع الرعب في قلبه بطريقة تشبه طريقة الممثّلة الصعيدية التي صاحت بزوجها في المسلسل الليلي وجعلته يقتل ابنته:

– بنتك حامل يا هريدي!

قالت وهي تهزُّه من غفلته السادرة:

- بنتك تلعب مع الأولاد يا عثمان!

لم يرَ أبي في لعبي مع الأولاد سوى لعب أطفال، لكن أمي شدَّت شعري حتى استقرَّ بعضه في يدها. قالت لي بعد أن زرعت خمس بقع زرقاء في فخذي:

- إن رأيتك مرة أخرى مع الأولاد سأقتلك.

لو علمت أمي بتحرُّشات الكبار بي لقتلتني بالفعل؛ فبسبب دوراني تحت الشمس هربًا من بقعات الفخذ الزرقاء، وبحثًا عن لذة معادلة حجم الألم، كنت أجد نفسي وحيدة أحيانًا، كما يجدني بعض الكبار وحيدة، فيستثمرون وحدتي لضغط أعضائهم على جسدي الصغير، أو مدِّ يدهم إلى داخل سروالي مقابل حلوى أو قطعة من النقود تكفي لشراء الشوكولاتة.

كبرت وأنا أشعر بكراهية شديدة نحو الشوكولاتة، من دون أن أقوى على كره الرجل ذاته الذي تحرَّش بي؛ فقد كان أحدهم قريبًا لي، وكنت أظن أن الأقرباء عادة لا يؤذون أقرباءهم الصغار.

الفتاة الرومانسية التي صرتها بعد أن قرأت القصص جعلتني أغنِّي لأمي في المدرسة.

أحب أن أراها في مخيلتي أنيقة شابة باسمة، تلبس مشدًّا صدريًا وتنورة وصندلًا أنيقًا مثل معلمتي فاطمة التي كنا نظن نحن الصغار أنها جاءت من جزيرة سحرية بعيدة. كانت معلمتي بيضاء، يزيِّن وجهها "ماكياج" خفيف من الكحل والحمرة الوردية، وتلبس

حذاء ذا كعب عال. أتخيل أمي مثلها وأنا أغني لها: "أمي أمي ما أحلاها".

تتشابك مشاعري لمعلمتي فاطمة ولأمي هيلة.

أقصُّ ثياب معلمتي فاطمة وأُلبسها أمي هيلة، فتختلط ملامحهما، ولا أعود أعرف من هي فاطمة ومن هي هيلة، فأحبُّ الاثنتين. وما لبثتُ أن اكتشفت أنهما أيضًا قاسيتان بطبيعتهما، فقد صفعتني معلمتي فاطمة يومًا وأوقفتني بمحاذاة الجدار على قدم واحدة لأنني لم أحفظ جدول الضرب بستّة، فعرفت أن فاطمة وهيلة متشابهتان في الحقيقة وليس في خيالي فقط.

في الطريق من المدرسة إلى البيت، لم أتوقّف عن ترديد أنشودة "أمي ما أحلاها". حرصت أن أُسمع أمي أغنيتي التي تعلّمتها في المدرسة، قذفت بحقيبتي في مقدمة البيت، ركضت، كانت أمي تقف أمام الفرن تطبخ الغداء وتقلب البصل في الزيت بالملعقة، وأخي الرضيع إبراهيم يبكي تحت قدميها، فتدفعه بقدمها، وتنهره:

– أخرج! ابتعد عن النار! الله ياخذك...

شعرت بأن بكاءه سيفسد عليَّ سحر اللحظة، فسألتها بنبرة فيها الكثير من اللّوم لأخي:

– لماذا يبكي؟

– جائع وليس لديّ وقت لإرضاعه، خذيه عنّي!

- أمي، عندي لك أغنية.

- ماذا؟! تغنّين!! يا مقصوفة الأجل. خذي أخوك عني.

- لا، أقصد أنشودة، يعني درس محفوظات.

- خذي أخوك! الله لا يحفظك!

أكره أخي إبراهيم، خرَّب عليَّ أغنيتي ومزاج أمي، مع أن مزاجها كان خربًا على الدوام. حملت أخي إبراهيم وهو يبكي، وفتحت رجليه على خصري، وهززته قليلًا، لكنه لم يصمت. قلت له:

- اسمع اسمع، أمي! اسمعيني!

وقبل أن أسمع ردَّها رحت أغني لها:

- أمي أمي ما أحلاها، هي في قلبي، ما أغلاها.

"واو واواواو"، إبراهيم يبكي. هززته على خصري مرَّتين ليسكت:

- أش أش.

كان إبراهيم منذ طفولته نكدًا وحقودًا، خرَّب عليَّ أغاني حياتي كلها:

- اسكت يا إبراهيم!

وأكملتُ:

- هي في قلبي، أبدًا أبدًا لا أنساها، عاشت أمي.

انتهيت من الغناء، ولم تكن اللحظة عاطفية كما أردتها، ومع ذلك توقعت أن تحيطني أمي بذراعيها بعد سماعها الأغنية، وفكرت أن أُنزل إبراهيم الذي كان يطوق خصري حتى يتسنى لها أن تغمرني بجسدها وروحها، لكنها على خلاف كل توقعاتي... سحبت الملعقة الكبيرة من جوف القدر ورفعتها في وجهي قائلة:

- طسّي عني قبل أن أهبدك بهذه الملعقة على رأسكَ!

تعلَّم عقلي الإنكار كخطة دفاعية لحماية مشاعري من الألم، وغدًا ينكر كل ما لا يراه رومانسيًا في حياتي ليصوّر لي عكسه. وقد أكَّد لي حينذاك أن أمي ليست غاضبة مني ومن أغنيتي، بل من إبراهيم ومن بكائه السخيف، لأنها قالت:

- اللّه لا يعيّشك يوم واحد، ترى أخوك فقع رأسي بصياحه!

(٢)

في المساء، جلنا نلعب قرب باب منزلنا مع أبناء أقاربي الذين جاؤوا لزيارتنا وظلّوا عندنا حتى المساء. أمي تقطِّع البطيخ الأحمر لضيوفها، فتملأ رائحته الجميلة أرجاء البيت، ثم تشعل بخورًا تدور به عليهم ليتعطَّروا قبل الذهاب. ظلَّت هاتان الرائحتان عندي علامتين مرتبطتين دائمًا بالضيوف والفرحة والحرية بلا عقاب. تغفل أمي عنا بسبب انشغالها بالضيوف، ويهدأ البيت من الصراخ، ونصبح أحرارًا حتى يغادروا.

تحت مصباح باب المنزل، وضعت قريبتي نورة يدها على عينيها وأخذت تعدُّ للعشرة، ركضتُ وأختي مشاعل، واختبأنا خلف سيارة جارنا القاطن قبالة بيتنا.

أنفاسي الحارة المتسارعة تتصاعد، أغلق عينيَّ من فرط حماستي للُّعبة خوفًا من أن تجدني نورة. تهبط يد عملاقة من خلف إطار السيارة، تدخلت في صدري، تقبض على أنفاسي. يتكسَّر شيء في صدري مثل البكاء، من دون أن أعرف له سببًا. ومن دون تفكير،

أركض بسرعة إلى البيت وأنا أسمع نورة تصيح بي:

- لقد خرجت من اللعبة، أنت مطرودة.

مررت أمام باب غرفة الجلوس. كان ضيوف والدتي يتحدّثون ويضحكون. وجدت باب المخزن مفتوحًا، يضيء مقدِّمته النور المنبعث من الصالة. أريد أن أخبِّئ وجهي عن الضيوف حتى لا يراني أحد، وكأنني محسورة بالبول. تهشَّم جدار صدري، و بلَّل ماء مالح عينيَّ، وداهمني البكاء. وجدت كيس الأرزِّ القريب من الباب واقفًا باعتدال، ويعادل ارتفاعه نصف قامتي تقريبًا. وضعت وجهي عليه، حضنته بيديَّ، وبكيت.

تفتَّح صدري بعد بكاء قصير. تحرَّرت أنفاسي وأصبحت واسعة ونظيفة، فشعرت بالراحة. منذ ذلك اليوم، كلما مدَّ العملاق يده وقبض على صدري، هرعت مسرعة نحو كيس الأرزّ الذي كلَّما رآني فتح لي ذراعيه، مثل حضن أم حنون، لأفرغ فيه بكائي. ثم أعود مسرعة، خائفة من أن يفوتني شيء من اللعب.

لاحقني العملاق طويلًا، خصوصًا بعد تلك الليلة التي ناداني فيها جارنا العازب محمد، وأقفل بابه عليَّ وعليه، و لم يخرجني حتى بكيت طويلًا. قمت في الليل، مخنوقة، أبكي. سمعتني أمي، وهي تصلِّي، سألتني:

- ما بك؟

- عملاق طويل، لا أرى غير قدميه الضخمتين، يجثو على

صدري ويخنقني.

– هذا "الجاثوم". لا بد أنك نمت من دون أن تذكري اسم الله. سمّي ثم اقرأي المعوِّذات ونامي!

– سمَّيت باسم الله، وقرأت المعوِّذات كلها، لكنها لم تنفع!

عاد الجاثوم يخنقني، بل صار يكرر زيارته لي، وصار الوقت بين الزيارة والأخرى أقل من سابقتها، فبات يأتي عندما تسحب الشمس ثوبها البرتقالي من عتبة منزلنا، وتلفُّه على رقبة السماء، ثم تولي حينًا ظهرها وتذهب. يأتي العملاق مرتديًا ثوب الليل الأسود، ينشر رداءه على حارتنا، يعمي العيون عنه، ليتسنَّى له خنقي وكتم صوتي فلا يسمعني أحد، فصرت عند النوم أبقي الغرفة مضاءة.

نبت صدري الصغير، فصار اللعب ممنوعًا عليَّ في الحارة. صرت أجلس في حديقتنا الصغيرة لوحدي، في حين ينتشر إخوتي في الحارة. وقتها كان يسعدني أنني صرت كبيرة ولا يشغلني اللعب. اشتريت من ابن عمي الصغير مسجِّلة باعها لي مع مكسب عشرة ريالات. كنت أعرف أن أمي لن تشتريها لي لو طلبتها. سرقت النقود من ثوب أبي المعلَّق في الصالة حين دخل ليتوضَّأ قبل صلاة العصر. ما كان يهمني في ذلك الوقت هو أن أحصل على مسجلة خاصة بي أعلِّقها على كتفي وأدور بها في البيت، وأسمع أغاني عبد الحليم حافظ وأم كلثوم ووردة الجزائريّة، وأحاكي مشاعر الحب فيها بحثًا عن حبيب ضائع لا أجده.

اكتشفت أن الكتابة عمّا أشعر به عمل سهل وآمن. صنعت لي الكتابة عالمًا مشتركًا مع أناس كثيرين، أختارهم بنفسي، يحبونني وأحبهم. صنعت لي مغارة باردة حصينة لا يدخلها غيري، ولا يفتّشها أو يعبث بأسرارها أحد، محصّنة بشيفرة سرية لا يفكها إلا أنا، فوالداي لا يجيدان القراءة.

للمرة الأولى وجدت مخبئًا غير دهاليز الحارة الممتلئة بالرجال الخشنين، وغير أحلام اليقظة التي مللت فيها من تغيير الوجوه، وتخاصمت فيها مع خالد الشيخ الذي سافر للدراسة وتركني لأنني كنت أشعر برغبة في البكاء، فأرسلته بعيدًا لأبكي عليه، لكنني لم أُعده مرة أخرى لأن البكاء يساعدني أكثر ممًّا يفعل هو.

(٣)

لا تستطيع أمي القراءة، لكنها تجيد فكَّ الحرف، وبعض الجمل مثل "ذهب عمر إلى الخبَّاز"، لكنها لا تستطيع أن تفهم عبارة مثل "أنت جمر غاف في صدري توقظه الأغنيات" أو "وردة أسقيها بماء محبتك كل ليلة". أوقعتني مهارة أمي في فك الحروف في مشكلة يوم وجدت في حقيبتي المدرسية في إحدى جولاتها التفتيشية قصاصة من الورق كتب عليها اسم غازي القصيبي "شقة الحرية". فاجأتني وهي تضع يدها على خصرها وتهزُّ يدها كمن ضبطني بجرم انفضح، قائلة:

- فضحكِ الله! من هذا يا قليلة الحياء؟ وماهي هذه الشقة؟

ارتجفت أوصالي ودقَّ قلبي مثل ماكينة دفع كهربائية تكاد تطير من شدة هلعها.

مدَّت يدها نحوي بالورقة لأقرأها، فأدركتُ ما ترمي إليه وابتسمتُ وأنا أقول:

- هذا اسم كاتب رواية، وشقة الحرية عنوان الكتاب.

قالت لي:

- هاه، وتكذبين أيضًا!

لم يضطرب وجهي كعادتي حين أتورَّط، ولم أقضم شفتيَّ كالعادة، ولم يجفَّ ريقي، أو تتقطَّع عباراتي، بل ضحكت طويلًا فشعرَت هي كمن وقع في مصيدة.

لكنها مع ذلك أخذت الورقة وذهبت إلى غرفة أخي فهد. لم تعد إلى غرفتي مرة أخرى لتؤكد لي أن أمري قد انتهى، وأن الله هو الذي تدخَّل كالعادة لفضحي.

تتحدث أمي في مثل هذه المناسبات باسم الله. فحين تضبطني في أمر تعتبره مخالفًا لاعتقادها، تؤكد لي أنها ليست من أوقع بي، بل الله.

ثم تتلو عليَّ حديثًا شريفًا باللهجة العامية:

- عندما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: ما هو المخبأ يا رسول الله، قال: اللي ما يكون.

ظل الله "كما رسمته أمي" يطاردني حتى وقت طويل، يزلزل أمني ويفزعني، وكلما عرفت لحظات من السعادة يهيَّأ لي أن الله سيخبرها عني ويرسلها لتخرب سعادتي، حتى لو كنت على بعد آلاف الكيلومترات منها.

حين أصلِّي، و أتلو القرآن يظهر لي وجه أمي بعينيها المكتحلتين،

المحمرّتين، نصف المغمضتين من جراء إصابتهما بالرمد الربيعي، فأرتعب.

بعد حادثة شقة الحرية، شعرت أمي بهزيمة نكراء كشفت لها أمّيتها. لهذا قررت بعد أيام أن تذهب إلى مدرسة محو الأمية.

عادت أمي في اليوم الأول لدوامها عند صلاة المغرب وهي تحمل كتبًا ودفاتر وقلمًا من الرصاص. سألها أبي مبتهجًا بفرحها:

– ما شاء الله، أين كنت؟ في السوق؟

قالت بفخر مثل طالبة صغيرة مجتهدة:

– لا، في المدرسة.

أُضيفَ إلى عاتقنا نحن البنات واجب جديد غير واجبات المنزل، هو واجب مساعدتها يوميًا في شرح فروضها الدراسية، وكان يسعدها كل يوم التباهي أمامنا بأنها هي أيضًا تدرس.

أصبحت أمي طالبة في مدرسة محو الأمية ذات الدوام المسائي، لكن السؤال الذي دغدغ مخيلتي تمحور حول الدافع الذي قادها إلى المدرسة، هل كان خجلها من جهلها؟ أو رغبتها في تطوير قدراتها كي تكتشف الحقائق الجديدة لبناتها؟

(٤)

يوم عرفت أنني حامل ابتهج زوجي منصور كثيرًا. عرفت النتيجة في البيت، لكنه أصرَّ على أن يتأكد من حملي في عيادة الطبيب مساء اليوم نفسه. أظهرت نتيجة تحليل الدم بعد ساعتين أنني حامل، فسأل الطبيبة:

– ألا يظهر تحليل الدم جنس الجنين؟

قالت الطبيبة:

– لسَّه بدري يا حبّة عيني، جنس الجنين يبان في الشهر الرابع، وساعات الخامس، أنا عارفة إنّ أنتم الرجال بتحبُّوا الصبيان، ربّنا ينولك الولد، أصل الولد حلو لأبوه، بس ادعي كمان إنّ ربنا يقوّم مراتك بالسلامة.

– آمين.

بعد الشهر الرابع، لم تأتِ النتيجة موافقة هوى منصور. شعرت الطبيبة بالحرج حين رأت وجهه قد أسودَّ وتكدَّر، فقالت وهي

تحرك بطني:

– دي باين إنَّها بنت، مقصوفة الرقبة، دي بنت، ياختي عليها عسل شربات.

قال منصور:

– رجاء، تأكَّدي يا دكتورة!

نظرت الطبيبة إلي وجهي الذي أظهر انزعاجًا، ليس من جنس الجنين بل من كوني أحبطت من ردة فعل منصور الذي لم يحرص على ضبط مشاعره أمام الطبيبة.

قالت:

– أنت عارف يا أستاذ منصور، ساعات بتبيِّن الأشعة الصوتية أن الجنين بنت، بس في الآخِر لما بييجي وقت الولادة بيطلع واد.

أضاء وجه منصور وكأنه بالفعل قد بشِّر بولد، ورآه بين يديه.

– صحيح؟!

– أُمَّال، دا أنا عندي حالات كتير حصل معاهم كدا، أنت إدعي بس ربِّنا يرزقك بالولد، كل حاجة بيد ربِّنا، قادر يا كريم!

ظل منصور يحلم بصبي، قال:

– سأسمِّيه سعد على اسم والدي.

قلتُ:

- لكنها في الغالب بنت.

- قلت لك ولد، واسمه سعد، سامعة لا أريد كثرة حكي.

قالت والدتي، ليس حبًا بالبنات، بل شفقة على منصور:

- الحمد لله على كل حال يا منصور، البنات رحمة.

قال وهو ينظر لطفلتي بعد ولادتها عن بعد:

- الحمد لله على كل حال.

ثم خرج من غرفتي.

كلّمني في المساء من البحرين، قال إنه ذهب "ليغيِّر جو مع أصدقائه في عطلة نهاية الأسبوع"، لكنني لم أره إلا بعد أسبوع.

في اليوم الأوّل من الولادة، داهمتني نوبات بكاء لم أعرف لها سببًا. كنت أتذكّر نفق الجحيم الذي مررت به أثناء ولادتي والآلام تلهب ظهري بسياطها.

كنت أركض داخل النفق، أرى بابا بضفلتين متأرجحتين تنفتحان وتنغلقان، وأقول لنفسي: هانت هذه هي النهاية. أفتح ضلفتيه، أدخل، تنطبق أضلعهما خلفي، تصدران صوتًا مخيفًا، ثم تنغلقان. أجد نفسي في ظلام جديد، في نفق الآلام مرة أخرى... أركض من جديد، وأرى الباب الذي يليه، وأقول لنفسي: تحمّلي، تصبّري، ربما هذا هو الباب الأخير.

لكن الباب الأخير لا يأتي أبدًا، وأنهض من نومي فزعة، فأسمع صوت عموشة في الظلام، وليس أمي، تقول:

- بسم الله الرحمن الرحيم، ما بك؟

- رأيت حلمًا مزعجًا يا خالة عموشة.

حلمت أنّني أتمدد على ظهري وابنتي على صدري... ثم غفوت، ثم استيقظت في الحلم، فتّشت بهلع عن طفلتي، لم أجدها في سريرها، وجدتها تحتي في السرير وقد نمت فوقها فاختنقت، مددت يدي نحوها، لمست يدها فإذا هي باردة كالثلج، كنت أشعر ببرودة يدها وكأنها حقيقة، وقلبي يتقطّع من الرعب، هززتها، جسمها بارد وميت كالمطاط، لكن جزءًا صغيرًا منها بقي دافئًا، ما بعث الأمل في داخلي بأنها لم تزل حية، وأنا أصيح باسم غريب، ليس اسمها، كنت أناديها: حياة، حياة!

ثم قمت هلعة.

سقتني عموشة ماء أصفر من منقوع الزعفران، تذوب في مائه ورقة بيضاء كتب عليها آيات قرآنية بالزعفران الأصفر، وتفوح منه رائحة هادئة. قالت لي:

- اقرأي المعوّذات يا ابنتي، وتعوّذي من الشيطان، كل النساء النفساء تراودهنّ أحلامًا مفزعة.

أسأل نفسي وأنا أغوص مرة أخرى في تأمل حلمي؛ لماذا كان اسم ابنتي حياة؟ هل يتعلق هذا الحلم بطفلتي أم بحياتي الباردة

التي تحتضر مع منصور؟ وهل كان الجزء الدافئ من صغيرتي هو الأمل الذي ينفث الحرارة فيها؟ لم أجد ذلك التفسير بعيدا عن الحقيقة، لكن ما كنت أجهله حينها هو أي جزء صغير في حياتي لا يزال نابضًا بالحياة ويلوح لي بالأمل؟ هل هذه الطفلة الصغيرة هي الأمل الباقي فيها؟ أنظر للصغيرة التي لم يأت أبوها بعد ليمنحها اسمًا، فهو لن يهتم بالاسم طالما أن المولود ليس صبيًا. هل أسمِّيها أمل؟

أشعر بأن هذه الطفلة عبء عليَّ؛ كلما ألتفتُّ إليها بجانبي يثقل قلبي بالبكاء. هل جاءت هذه الصغيرة لتكدر عليَّ حياتي؟ كل شيء في جسمي يؤلمني، قطب الجرح بين فخذَيَّ، صدري المتورِّم بالحليب، وهذه الطفلة التي تبكي في الليل من كثرة ما تبوَّل وتتغوَّط، وتنام في النهار... وجه أمي الصابرة على قضاء الله وقدره، من يرزق البنات هو الله... ومنصور يهرب إلى البحرين ليخفِّف عنه صدمته، يكلمني كلما أدركه السكر، ويبكي قائلًا: كيف هي الصغيرة؟ وحين يسمعها تبكي يقول بلسان خدَّره السكر: هذه الملعونة، ماذا لو كانت ولدًا؟ كنت سأحبكما أكثر وآخذكما معي، ولكنت الآن بجانبي! كس أختكم يالنسوان.

ذهب منصور ليشرب الكحول وينسى خيبة أمله لأن بكره ليس ولدًا، فقد سمح لنفسه بكل شيء لأن الله لم يحقق حلمه الكبير بأن يصبح أبا سعد.

جلست عموشة بجانبي تسقيني أدوية النفساء من الحبة

السوداء، ومنقوع المرَّة لتطهير الجرح، والحلبة لدرِّ الحليب، واليانسون لغازات البطن... لكن دواء روحي كان حكاياتها التي تقصُّها عليَّ.

نظرت في عينَي الطفلة وقالت لي:

– يا بنتي، لا تحزني، وهل يحزن من لديه مثل هذه القمر الصغيرة؟

رفعت الصغيرة بين يديها ولعبت بها كمن يلعب بدمية. كانت تجعل الصغيرة تضحك وهي تضع إصبعها على شفتيها، وتربِّت عليهما برفق، قالت:

– هذه البنت، هي من سيعتني بك إذا كبرت وصرت عجوزًا مثلي. ستكون فرحة بيتكم وستصبُّ القهوة لوالدها، وسيعشقها من بين كل أولاده.

– لا يبدو الأمر كذلك يا عموشة، الرجَّال هرب من أوَّلتها.

– يا بنتي هذا كله كلام ساعة حاضر، بكرة أذكّرك، يقولون الولد فرحته في أوَّل البشارة، ولكن في آخر الحكي تبقى البنت هي المولودة المباركة، مثل مي الوفية، كانت أوفى لأبيها من كل ولد.

– ما قصَّة مي هذه؟

– كانت مي بنتًا لرجل ضرير ضعيف، وكان الشباب يخطبون ودَّها، وهي ترفض، تتعذَّر بأنَّ أباها رجل كبير وضرير ويحتاجها،

وتخاف أن يحول زوج المستقبل بينها وبين العناية بأبيها! ذات يوم جاءها خاطب من خيرة الرجال، لم يقوَ الأب على رده، قال لها أبوها:

– أريد أن يكون لك ولد، أولادك هم من ينفعونك في حياتك يا مي. أنا لن أدوم لك.

تزوَّجت مي وأنجبت أولادًا وبناتًا، وذات يوم قرّرت القبيلة النزوح بحثًا عن مرعى جديد، بعد أن جفَّ مرعاهم ومات زرعهم، ولأن أبا مي رجل كبير وضعيف لا يقوى على الرحيل، قررت القبيلة أن تترك له طعامًا بجانبه وترحل. رحلت مي مكرهة مع القبيلة، وتركت والدها، وبعد مسيرة نصف يوم شاق وطويل، توقفت قافلة الإبل لترتاح وتأكل. أوقدت الجماعة نارها، وحلا لأفرادها الحديث والسمر مع فنجان قهوة شقَّ على الراحلين طول غيابه.

طلب زوج مي أن تحضر له طفله الرضيع ليلاعبه. قالت له بهدوء:

– ابنك، تركته في عناية والدي!

هبَّ زوجها مذعورًا:

– أنت تمزحين! قولي قولًا غير هذا!

– ليس لديَّ غيره.

- وكيف تتركين ابني عند والدك في الخلاء، هل جننت؟

ردت مي:

- ولدك، ليس عندي بأغلى من والدي، وكما تشعر بحرقة الخوف على ابنك كذلك قلبي على أبي.

هبَّ زوجها من مقعده، ركب حصانه مسرعًا يقطع سواد الليل آملا أن يجد ابنه حيًا لم تأكله الذئاب، قطع المسافات والخوف يقطع قلبه الذي أدرك درس الحب ووعاه.

وصل زوج مي إلى مكان والدها الضرير، سمع صوتًا يصرخ عاليًا:

- ابعدوا وراكم، هذا ولد مي.

كان والد مي الضرير يحرس ابنها بعصاه ويضرب بها على الأرض كلما سمع صوت حفيف شجرة، أو حشرة تزحف، صائحًا:

- ابعد عن ولد مي.

حمل زوج مي إبنه ووالد زوجته، مثل طفلين صغيرين، وعاد بهما إلى قبيلته، وذهبت تلك القصة بين الناس مثلًا، وشهادة على رقة قلوب البنات ووفائهن لآبائهن، حتى أنَّ من لم يرزقه الله بنتًا لم يذق طعم الحنان.

نمتُ تلك الليلة وقلبي متدثّر بحكاية مي، وقرير بعدالة السماء

التي لم تخلق الإناث لتعذّبهن بل لتفخر بوفائهن، وأقسمت على أن أسمّي ابنتي من ذلك اليوم مي وفاء لها.

(٥)

يدهشني ذكاء أمي وأفعالها السحرية. سألتها يومًا:

- كيف تعرفين عدَّ الأرقام وجمعها، وأنت لم تذهبي يومًا إلى المدرسة؟

ساعد أمي هذا الإطراء لتروي لي قصتها بفخر جنرال يفصح عن سرٍّ من أسراره الحربية:

- كنت أتنصَّت على خالَيك عبد الله، ومحمد أخي من أبي، وهما يقرآن دروسهم في مجلس البيت في قريتنا، وأسمع ما يرددونه وأحفظه. حفظت الأرقام والحروف وبعض الجمل. لكن محمد ضبطني يومًا وأنا أستخدم محبرة الفحم وأكتب الحروف بخط جميل على لوحه الخشبي، فشدَّ ضفيرتي حتى كاد يقطعها ورمى بي بعيدًا عن المجلس، وقال لي: إن رأيتك تدخلين هنا مرة أخرى قطعت رجلك.

ثم أضافت:

- ذاع بين الناس أن هيلة تعد حتى رقم الألْف، فجاء الأولاد يختبرونني وهم يقفون فوق رأسي: هل حقًا تعرفين أن تعدِّي حتى الألْف؟ فأتحدَّاهم وأعدُّ حتى المائة، بعضهم يقرُّ بخسارته الرهان عند هذا الحد، وبعضهم ينسحب بعده برمًا من عدم اصطياد أخطائي.

- وهل حقّا عددت حتى الألْف؟

- نعم! وماذا تحسبين؟ حتى إنَّ أباك الذي كان يعمل في الرياض جاء مرة لزيارتنا في قريتنا، فوجدني أتحدَّى أبناء القرية وأعدُّ الأرقام سريعًا فسأل الأولاد: ما شاء الله! من هذه البنت الذكية؟ وعلى الرغم من حيائي الشديد ذلك الوقت إلا أنني تلقَّفت، وقلت: أنا هيلة بنت عبد المحسن! الله يأخذ عمري يوم أخبرته، ليتني ما فعلت.

- لماذا يا أمي؟ ألم يكن يعرفك؟ ألم يكن قريبك؟ ألم يكن أبي ابن عم أبيك؟!

- هذا... بلى، أبوك ذهب لأبي يومها وخطبني. قال له أبي: تعال في السنة القادمة، هيلة لا تزال صغيرة، وهي يتيمة وتعيش مع جدتها. لن تسمح لنا جدتها بأخذها وتزويجها الآن. ظل أبي كل سنة يقول لعثمان: عد في السنة القادمة. ثلاث سنوات، كل سنة يواعده في السنة التي تليها، وتزوجته فعلًا بعد ثلاث سنوات. التقطوني وأنا عائدة من المرعى من دون أن أدرك ما الخبر، كنت وقتها صغيرة، لم تزرني العادة الشهرية بعد. ولم أدرك بعد بأن

أرقامي الألف المشؤومة طوحت بي إلى طريق غربة طويل، مثلها.

صمتت أمي وغرقت في تأمل دربها الذي قالت عنه إنه "درب غربة طويل".

قلت لها أن تكمل. وضعت يدي على يدها أضغط عليها وأشجعها. رمت يدي عنها وقالت:

– ابتعدي عني، شغلتني عن الصلاة، وش لزومه كل هالكلام والحكي، ما وراه إلا كثرة الذنوب، الله يغفر لنا بس وأنتي قومي للصلاة.

أكملت عموشة قصة أمي المقتضبة، فقالت: هيلة التي لم تبلغ بعدُ عادت من مشوار الرعي الذي تقوم به البنات الصغيرات، بعد أن أمر أبوها أبناءه عبد الله ومحمد وأخي سعيدان بذبح خراف العرس، وكلَّف أمي نوير ووضحى، جدَّة هيلة التي ربَّتها بعد موت أمها سلمى، بتجهيز هيلة لعثمان القادم من الرياض ذلك اليوم للدخول بها. كانت هيلة قد وعدت نفسها قبل غروب الشمس بوجبة من معصود الخبز بمرقة البصل والسمن التي تعدُّها جدتها وجبة للعشاء. رائحة الخبز المطبوخ في أفران الدور الطينية، يسيل لعابها جوعًا. وكانت تحدِّث نفسها وتتمنى لو يمهلوها لتأكل. دخلت هيلة البيت، جرَّتها يد طويلة من ثوبها، قالت جدتها:

– تعالي يا مقصوفة العمر، لماذا تأخرت؟

هي لم تتأخر، لكن النعاس جعل الدرب طويلة عليها. جدتها

"وضحى" لم تكن غاضبة منها بل كانت متوترة، بسبب هذه الليلة التي لا تعرف فيها أيَّ مصير ستطيقه صغيرتها في حياتها المقبلة.

ربطت نوير خيوط سروالها الطويلة جيدًا، وأدارتها على خصرها لتحميها من شيء لا تعرفه. ظنت أنها فعلت كل هذا لكي لا يسهل على أحد فكَّه. قبل أن يخرج لصلاة الفجر وهي نائمة، شدَّها من وسطها، وجرَّها نحوه مثلما فعلوا بخراف ليلة عرسها، حين رأتهم وهي عائدة من المرعى. لا بدَّ للعريس أن ينهي هذه المهمة قبل الخروج من غرفته في الصباح الأول لعرسه، وإلا ضحك منه الناس. ومن دون أن ينطق بأية كلمة، جرها من قدميها، واعتلاها، قبض بفخذيه قدميها وهي ترفسه، قصّ بسكّينه لحمها اللدن الرقيق، وتركها تنزف دمًا وخرج وكأنه لم يفعل شيئًا. أصاب هيلة الذعر، شعرت بأن والدها قد يقتلها لو أخبرته ماذا فعل ابن عمه بها، ولكن كيف تخبره بحدث مخجل كهذا؟ كيف لها أن تتفوّه بكلمات قليلة الحياء كي تشرح له الأمر؟ أخبرها عقلها، وهي تتذكر بعض كلمات نوير وجدتها، بأنهم أعدُّوها لهذا، فلم تفهم. عنت لها كل كلمة سمعتها أن تذعن، مثلما تفعل النساء العاقلات، لكل ما يفعله عثمان بها، حتى لو لم يعجبها فعله. شعرت بأنهم جميعًا سيسامحون عثمان مهما فعل بها، لكنها هي لن تسامحه، ولن ترضى عما فعله بها. شعرت بأنها لا تحب هذا الرجل الذي أفزعها تلك الليلة، وظلَّت تحمل طوال حياتها الشعور الذي انتابها من ليلة عرسها.

شيء ما يحرك معدتها ويضغط على قفصها الصدري، بدا في الليلة الأولى خوفًا، لكنه في الليالي التي تلته تحوَّل إلى شعور بالتقزز يجعل معدتها تتقلب، بينما عقلها يأمرها دائمًا بأن تطيع ما سمعته من أحاديث تحثُّ النساء على الصبر والاستجابة لأزواجهن في الفراش، وتهددهن بالعقوبة إذا رفضن، فتصبر حتى ينتهي وتحتسب وتتعزى بالجنة.

هربت هيلة بعد ليلة عرسها مرتين. في المرة الأولى، هربت إلى أخوالها في القرية المجاورة. مشت نصف نهار إلى بيتهم. لم تفكر في خوفها من قطَّاع الطرق واللصوص. وصلت إلى بيت أخوالها ودخلت تبكي من التعب وقلَّة الحيلة على كتف خالها ضاري.

لم يهتم خالها بشكواها، ترحَّم على والدتها، مسح على شعرها وقال:

– الله يرحمها والدتك، لو كانت هنا لما هربت. أمسك بيدها ومشى بها نحو قريتها، وظلا صامتين حتى رأت بوابة البيت، وإخوتها يلعبون أمام الباب وكأن شيئًا لم يحدث. غير أنها ما إن وصلت حتى استقبلتها وضحى، ضربتها وقرصت فخذيها قرصًا ترك علاماته الزرقاء لأيام طويلة، ولولا تدخُّل نوير لماتت تلك الليلة بين يدي وضحى.

في الصباح التالي لم يجدوها. اختفت مرة أخرى. هذه المرة لم يجدها أخوها عبد الله عند أخوالها عندما أرسلوه يسأل عنها. ضربوا أختها سارة لتعترف بمكانها، بكت سارة طويلًا لأنها خائفة

على أختها وأقسمت على أنها لا تعرف شيئًا عنها. قالت سارة لجدتها:

- ربما أنَّ جنيًا خطف هيلة وكسر رقبتها عند البئر.

قالت لها أمها:

- ليته خطفك أنت أيضًا لنرتاح من عاركنَّ يا مقصوفات الأجل!

جاء الليل ولم يعثر لهيلة على أثر. بدأ القلق يسري في قلوب أهلها. طمأنت نوير وضحى بقولها:

- لا تخافوا! هيلة لا تزال صغيرة، لن تذهب بعيدًا. غدًا ستشرق الشمس وتملأ الدار. أين ستذهب؟ لا بدَّ أنها هنا أو هناك، وستعود.

قالت وضحى:

- البنت صغيرة، وقد تكون وقعت في بئر أو مصيبة أخرى لا نعلمها بعد.

تعبت نوير من السهر الطويل وكلَّت، وودَّعت وضحى وذهبت لتنام في دارها. مشت في الليل مسافة قصيرة من بيت وضحى إلى بيتها القريب، صراصير الليل تملأ السكون بالزعيق، كأنها تدل على مخبأ هيلة، أو تؤنس وحدتها، فتقيم حفلة صاخبة من الضجيج الليلي الغامض. دخلت نوير منزلها المكوَّن من مطبخ

صغير وغرفة أصغر. المنزل الذي وهبها إياه عمها عبد الرحمن، ولم يبق فيه من أولادها أحد. تزوجت عموشة، وذهب ولداها للعمل في أرامكو في الخُبر.

في الدهليز الضيّق وقفت نوير أمام "زير" الماء لتشرب. فتحت غطاء "الزير" الخشبي، غرفت منه رشفة ماء تبلّل حلقها الجاف بسبب خوفها على هيلة، اصطدمت رجلها بجسد دافئ صغير:

– بسم الله الرحمن الرحيم! إنس ولا جان؟

خرج صوت مرتجف بالبكاء والخوف:

– هذا أنا يا جدة نوير، أنا هيلة.

أمسكت نوير هيلة وسارتا في طريق العودة لمنزل هيلة، يد نوير تمسك بيد هيلة الصغيرة الراعشة بردًا وجوعًا، وتمسح باليد الأخرى على رأسها، تتلو عليها حكايات المرّ والصبر والسلوى ليطمئن خاطرها الخائف، ويهدأ.

لم تعد هيلة تفكر إلا بعقاب جدتها وضحى، وهي جائعة وضعيفة وعارية من الحيلة جراء يومِ هربٍ متعبٍ وشاق، تخيلت مذاق الطعام في حلقها، فوجدته أطيبَ من طعم الحرية التي جربتها؛ سمعت والدها يومًا يصف الجوع بالقول: الجوع كافر.

مشتا عائدتين من دون أن تعرفا أياهما كانت تقود الأخرى، نوير العمياء، أم هيلة المبصرة. كلتاهما كانتا تمشيان الطريق ذاته، طريق بلا عيون، وقد طوّق الليل بعصابته عينَي هيلة، شد وثاقه

على آخر يوم لهيلة في قريتها.

بقيت يومين وهي مختبئة بعيدًا عن الناس الذين يدحرجونها نحو رجل أكبر منها بخمسة عشر عامًا، تخاف منه وهي تتذكر أنه الرجل الذي سألها يومًا عن اسمها. تمنَّت وهي تلوم نفسها! لو أنها لم تخبره عن اسمها! لسانها الطويل الذي حذرتها جدتها وضحى منه هو المسؤول عما حل بها؛ فلولاه لما حدث لها كل هذا. منذ ذلك اليوم، صار الكلام بغيضًا لديها، فهو إما يقود للإثم أو للمصائب، فقررت أن تقتصد به ما استطاعت، خوفًا منه وربما عقابًا لنفسها!

أخذ عثمان عروسه في اليوم التالي بعد أن ربط قدمها طوال الليل بيده خوفًا من أن تعيد الكرة وتهرب، ثم سافر بها في الصباح إلى الرياض حيث لم تعد تعرف فيها طريقًا تهرب عبره.

(٦)

في جوف "الترمس"، وضعتُ المصفاة لتمنع قشور الهيل من الانسكاب في داخله، سكبت القهوة المُرة بداخله، ثم أقفلت فوهته، ووضعت بعض حبات التمر المعجون في علبة بلاستيكية، وجعلتها مع "الترمس" في سلة من البلاستيك. ركبتُ في المقعد الخلفي للسيارة التي يقودها السائق الفيلبيني ذاهبة إلى عملي في مستشفى "الوطن". كان الهواء باردًا، وصوت فيروز يغني: "كيفك إنتَ ملا إنتَ"!

قطعت السيارة "الدائري السريع" بسرعة تفوق المئة كلم في الساعة. كان "الدائري السريع" خاليًا من الزحام الذي تشهده عادة شوارع الرياض في وقت خروج الموظفين إلى أعمالهم، والطريق إلى المستشفى يمر عبر قطع أراض بيضاء، قال لي أبي يومًا إنها كانت من الصحراء التي يقصدها المتنزهون وقت الربيع، وها هي اليوم جزء من المدينة، لا يفصلها عن بيتي سوى عشرين دقيقة. عندما اقتربت سيارتي من البوابة وضعت برقعي على وجهي، أطل الجندي ورآني، ثم نظر إلى ملصق الدخول على زجاج السيارة الأمامي وسمح لنا بالدخول.

كان العمل كاختصاصية اجتماعية في مستشفى هو الخيار الوحيد الباقي أمامي، بعد أن تركت منصور وعدت لمنزل والدي بعد أن توفي. أردت أن أعمل لأعيل نفسي وطفلتي، وحين وجدت عملًا براتب جيد من خلال الشركة الأميركية التي تشغِّل المستشفى، لم تجد أمي عذرًا لتمنعني عن العمل سوى أن العمل سيعرضني للاختلاط بالرجال، وأنني سأتعرض للقيل والقال، وأن والد طفلتي سيعايرنا، وقد يأخذ طفلتي مني إن علم بالأمر. كانت أمي تعرف أن زوجي لم يعد يهمه أمري بعد زواجه الثاني. لكنها أرادت أن تقنعني بأن عملي في مستشفى قد يحوِّل حياتي إلى جحيم. لكنها في الحقيقة كانت تقلق من هذا العمل الذي سيجعلني بعيدة عن مراقبتها ونقدها ساعات طويلة، وسيجعل يدي ممتلئة بالمال الذي لن تتحكم هي بإعطائي إياه.

وعدتها أن أضع النقاب على وجهي مثل كل الفتيات السعوديات بنات العائلات المحافظة. عددت لها بنات كل العائلات المحافظة اللواتي يعملن في القسم معي. وحين عرفت أنها ستخسر، فضّلت أن تكتفي بغنيمة تمسّكي بالنقاب، حتى تعثر على حجة أخرى قد تحول بيني وبين العمل في المستشفى. وضعت النقاب على وجهي، بحيث لا يبين منه سوى عينَيَّ، قبلت بأن أضعه، لكن زملائي في العمل يعلمون بأن النقاب يُرفع حالما أدخل إلى المكتب، أنسى إعادته على وجهي حين يدخل رجل من الزملاء أو المراجعين.

– صباح الخير.

- صباح الهنود، والسرور، والبيض المكسور.

- كدمورننك "أيملي".

- كدمورننك مدام هند.

- أين دفتر التوقيع، يا رايقة؟

- عند المديرة يا حبة عيني.

- لازم يعني نتصبَّح بوجه سوسو، يا فتاح يا كريم.

توجَّهتُ إلى غرفة المديرة، قهوتها الأميركية فاحت من الممر المؤدي إلى مكتبها، وعطرها الأميركي أيضًا. مديرتي سارة تخرَّجت من جامعة أمريكية، ولا تضع برقعًا على وجهها مثلي وهي تسير في الممرات، وإنما منديلًا من الحرير الأسود تلفه حول شعرها، ويظهر جزء من مقدمة شعرها.

مديرتي مطلَّقة، في الأربعين من عمرها، يُظهرها ماكياجها أكبر مما هي عليه، وأكثر ما يضايقها في العمل تمرُّد موظفيها الذكور الذين يعملون تحت إدارتها ولا ينصاع أحد منهم لأوامرها لكونها امرأة، ويرفضون المرور بمكتبها في الثامنة صباحًا للتوقيع على دفتر الدوام؛ يتعللون بأن مكتبها بعيد عن مكاتبهم في الممر الأمامي من المستشفى، ويقترحون عليها أن تضع الدفتر عند منسق القسم في مكتبهم الأستاذ عبد الرحمن ليقصر الطريق عليهم، وإلا فإنهم لن يمروا للتوقيع في الساعة الثامنة، بل متى ما أجبرهم عملهم على المرور بالمكتب. نادرًا ما وجدت نفسي أمرُّ بمكتبها لأنها هي

أيضًا يندر أن تحضر في الثامنة صباحًا، فمكتبها يظل في معظم الأيام مقفلًا في الساعات الأولى من الصباح، وبحسب أقوال سكرتيرتها، يكون لديها دائمًا اجتماع خارج المستشفى. واليوم الذي تحضر فيه في الثامنة، تأمر السكرتيرة بأن تحمل إلى مكتبها دفتر التوقيع لتضبط من جاء متأخرًا لتؤنبه.

توحي لنا سارة في حديثها معنا نحن الموظفات المطيعات أمامها، والمتذمرات خلفها، بأن حصولها على منصب مدير الخدمة الاجتماعية سببه العلاقة التي تربط والدها رجل الأعمال الثري مع مدير المستشفى، كنصيب من تقسيم الإرث السلطاني في المستشفى، وبأنها جاءت بأمر من فوق، بحسب ما فهمت منها. فهي لا تعتزُّ بشهادتها ولا بحسن إدارتها اللذين لم يتسبَّبا في حصولها على المنصب الإداري الهام، بحسب ما تصفه، بل بسبب علاقة أبيها بالناس "اللي فوق". تلك العلاقة تحميها، وتحفظ سلطتها، وهذا أكثر ما تخافه وتحسب له حسابًا. وقد كانت تحتاط لحماية منصبها من المؤامرات والانقلابات من خلال موظفة غير سعودية تقتلها الحاجة والترمُّل، بتكليفها نقل كل ما تسمعه وتراه في القسم. وهذا ما ورَّطني مرة حين نقلت لها أننا نذللها أنا وصديقتي منيرة باسم "سوسو"، تهكمًا، وتقليدًا لطريقة حديثها الغنج. يحلو للثرثرة النسائية من حولها أن تلاحقها بالإشاعات حين تسمح لبعض الموظفين بالمرور بمكتبها وزيارتها وتناول القهوة معها من دون سبب ظاهر، ويظل باب مكتبها مقفلًا طوال وقت الزيارة.

تحب سارة التودد للشباب صغار السن؛ فمعظم زوارها من الشباب الذين لا يتعدون الثلاثين من العمر، ولا يملك أحد منا أي تفسير لوجودهم في بعض المناسبات العملية سوى أن وجوههم جميلة، حتى أن شذا كانت تعضُّ على شفتها كلما شاهدت أحدًا منهم وتسرُّ لي قائلة: من أين تحصل عليهم بنتُ الَّذينَ؟!

عبرتُ الممرات المؤدية إلى مكتبي البعيد عن أجنحة المرضى، والتي تنتشر فيها مع ذلك الرائحة المعهودة للمستشفيات. أرى عمال التغذية يحملون الفطور الصباحي المغطى بأكياس بلاستيكية، وصوت المذيع الداخلي لا ينقطع طالبًا أحد الموظفين للرد على الهاتف. وقبل أن أصل المكاتب، قابلت فيصل؛ طفل في العاشرة من عمره، نزيل دائم في المستشفى، يتجول كعادته في الممرات وهو على كرسي الإعاقة. يحتفظ فيصل بإقامته الدائمة في المستشفى بسبب الواسطة أيضًا، فهو ليس مريضًا، بل معاق يحتاج إلى عناية خاصة، وأهله الأثرياء الذين يسافرون كل صيف لسويسرا لا يجدون مكانًا لرعايته في بيتهم، ولو مع ممرضة خاصة أو خادمة، لكنهم يملكون نفوذًا ليحصلوا على خطاب توصية بإبقائه لسنوات في المستشفى.

كان فيصل في يوم من الأيام طفلًا جميلًا، كما توحي ملامحه، لكن خطأً طبيًا تسبَّب في إعاقته عقليًا وخطف منه طفولته.

– صباح الخير يا فيصل.

نظر إليَّ فيصل وهو يحاول رفع رقبته بصعوبة، وابتسم.

مسحت على شعره.

- هل تأتي معي؟ أحمل لك بسكويت في حقيبتي.

شعر فيصل بالخجل وأدار وجهه. خرجت ممرضة من جناح الأطفال وصاحت به:

- أنت هنا يا فيصل؟ كنت أبحث عنك!

عندما رأتني ألقت عليَّ تحية الصباح:

- صباح الخير سيِّدة هند.

- صباح النور جين، كيف حالك اليوم؟

- بخير.

مسحت الممرضة "جين" على شعر فيصل. جين الشقراء تحب فيصل أكثر مما يحبُّه والداه. أدارت ظهر كرسيه وهي تقول:

- شعرك يحتاج لحلاقة. هيا، حان موعد فطورك.

دخلت إلى مكتبي. وجدت شذا تصلح ماكياجها وتنشر لونًا أسود على رموشها ثم تسحبها بالفرشاة إلى الخارج. أضفى اللون الأسود على عينيها جمالًا وغموضًا ساحرًا. شذا جميلة، حادة الملامح مثل امرأة بدوية، عيناها السوداوان تلمعان بذكاء وفرح مجتمعين، ولها أسنان صغيرة وكثيرة تشاغب بعضها، فلا تنتظم في طابور اعتيادي بل يركب كل سن على الآخر في فوضى تمنح

ضحكتها طفولةً دافئة عصية على الاحتجاز، ومن يراها يعرف أنها فراشة تعيش في حقل ملوَّن من حكايات الحب والرفاهية، وقد يظن مخطئًا أنها مرفّهة ومتعالية.

وضعتُ على الطاولة ترمس القهوة، رفيقي الدائم الذي صار الجميع يعرفونني به. فتحت فم الترمس، فاحت القهوة في مكتبي برائحة مدوخة عجيبة تنبعث كل صباح، فتجذب المارّين بالمكتب سائلين عن سر تلك الرائحة. هذا السؤال المتكرر صار غطاء للتسوُّل المفضوح الطامع بفنجان قهوة سخي، لم أمنعه يومًا عن أحد، لكنني اعتدت أيضًا التسلح باليقظة مستعدة دومًا لقطع الأحاديث التي تتودد لي بعد فنجان القهوة للحصول على غيره، فأترك مكتبي، وأتعذر بعمل خارجه، ليعرف الضيف أن وقت القهوة قد انتهى.

صببت القهوة في فنجاني المصنوع من الخزف الملوَّن والذي أحضرته معي من البيت، قدمت واحدًا لشذا، وضعته على مكتبها، وشربت أنا واحدًا. دخلت زميلتنا جهير التي نطلق عليها لقب "الحاجة جهير". قفزت شذا برشاقة وقالت:

- حسنًا، جاءني نداء.

نظرت إلى جهاز الاستدعاء:

- آه! إنه من الجناح ١٥، أراك لاحقًا يا هنودة.

- وقهوتك؟

- تشربها الحاجة جهير.

تمتمت جهير:

- أستغفر الله العظيم.

- هل تشربين القهوة يا جهير؟

- لا، شكرًا.

- أما أنا، فأحتاج لمزيد من القهوة لأصحو.

- استيقظت متأخرة يعني؟

- تقريبًا.

- هذا يعني أنك لم تصلّي الفجر!

نظرت إليها؛ وجهها المدوَّر ولونه الحنطي المائل للبياض وقسماته الصغيرة الناعمة، وتلك النظرة القاسية في عينيها، ومرارة كلماتها، خمَّنت من عباراتها أنها كعادتها تريد مدخلًا لتقديم نصح ديني طويل تستعرض فيه كل ما تحفظه من أحاديث وآيات قرآنية.

قلت لها:

- بلى صليت، لكن النوم سلطان.

فتحتُ كتابي بطريقة لا تظهر عنوانه، وأشحت بوجهي عنها، لكنها بطريقة ما سرقت نظرة لحوحة وفضولية نحو ظهر الكتاب

وتمكنت من قراءة عنوانه، قالت:

-أعوذ بالله! ما هذه الكتب؟ ألا تخافون على عقائدكم من هذه الكتب الغربية؟

قلت في نفسي: لن أرد، ستجد من تخاصمه غيري.

دخل أحد زملائنا. كان سعد شابًا حليق اللحية يميل للحديث مع النساء كلما وجد فرصة لذلك. سأل السكرتيرة الفليبينية عن مديرة القسم.

- خرجت. هل تريد ترك رسالة؟

- لا، ليس الأمر مهمًا.

ثم أخذ يمازحها قليلًا بخصوص الصورة التي تضعها على مكتبها.

- هل هذه أختك الصغيرة؟

-لا.. هذه أنا.

سألته السكرتيرة الفليبينية بالإنكليزية:

- ما معنى دورة مياه بالعربية؟

- حمَّام. عليك أن تنتبهي. هناك "حَمَام" وتعني الطير، و"حمَّام" التي تعني دورة المياه.

ضحكت وقالت:

- يا إلهي! كيف أعرف الفرق؟!

- الفرق في...

قاطعته جهير:

- ما شاء الله يا سعد! هل ستعطي السيدة دروسًا في العربية في مكتبنا؟ لا يجوز يا أخي! ألا يكفينا الاختلاط ومساوئه؟ عليك أن تحذر، فالشيطان موجود بينكما!

نظرتُ إلى سعد الذي احمرَّ وجهه من خطبة جهير، وشعر بالحرج، لكنّه ردَّ عليها:

- صباح الخير يا جهير! أنت هنا!

ولكي يخلِّص نفسه من الحرج، سألها عن بعض الإجراءات الإدارية في القسم لحالة مريض عنده.

أعجب السؤال جهير، فأخذت تجيبه بحماسة وقد نسيت أمر "درس اللغة العربية". تشاغلتُ بقراءة الرواية، خرجت جهير بعد أن انسحب سعد غير المرحَّب به هنا، فسبح المكتب في هدوء استثنائي غير معهود.

(٧)

"المسيح يُصلب من جديد".

كان هذا عنوان الرواية التي أقرأها. بدت لي رواية جميلة فحسب، وليست بهذه الخطورة، حتى سمعت اسمها يلفظ بصوت عال على لسان أحدهم. سقط قلبي في حضني؛ "المسيح" و"الصلب" و"كازنتزاكي" جميعها أسماء غريبة هنا، ومن الأفضل ألا تذاع جهرًا! أزحت الكتاب قليلًا وأنا متجهِّمة، وغاضبة في الوقت نفسه، من هذا الذي فضح سري وبصوت جهوري أيضًا ومتطفل!

كان شابًا في الثلاثين، حنطيَّ اللون، طويلًا، عريض الصدر، يلبس بالطو أبيض ويضع بطاقة المستشفى على صدره، ما يوحي بأنه من موظفي المستشفى، قال:

- مرحبًا.

رفعت رأسي نحوه لكنني لم أبادله التحية. أشار بعينيه إلى كتابي وهو يبتسم:

- رواية جميلة؟

وضعت الكتاب على الطاولة لأخفي العنوان، وبقيت صامتة بانتظار جملة يمكن أن أردَّ بها من دون أن تورِّطني في حديث معه. ارتبك قليلًا حين وجدني قد أغلقت كل ملامح وجهي عن الرد، وقال:

- عفوًا، هل شذا موجودة؟

- لا، خرجت. هل تحب أن تترك لها رسالة؟

- لم أنتظر جوابه، بل ناولته دفتر أوراق خضراء من أوراق المستشفى وقلمًا، وتركتها له على طرف الطاولة.

كتب ما أراده ثم قال:

- حسنا، شكرًا.

ابتسمتُ ابتسامة صغيرة وقلت بصوت خافت قبل أن يخرج:

- عفوًا.

الرجل الذي أحببت كان أيضًا طويلًا، وصدره عريض بالمحبة، لكن ذاك الحب كان سببًا في عراك مع أمي لم يهزمني فيه سوى اكتشافها لأمر علاقتنا ذات يوم، ولم أكن أتوقع أن تتعرى فيه مشاعري أمامها.

تعرفتُ إليه عن طريق صديقتي موضي. كان صديقًا للرجل

الذي تحب، وأنا كنت صغيرة وساذجة، ولم تتعدَّ علاقتي به الأحاديث الهاتفية الليلية، وتبادل صورنا، حيث كنت أترك له صوري على عتبة الباب المضاءة ليأتي ويأخذها بعد منتصف الليل تاركًا لي صوره على العتبة نفسها.

كنت عندما أسمع صوت سيارته، أخرج من الباب الخارجي وآخذ الصور. نقضي ساعات طويلة على الهاتف نتحدث عن الصور. أراد مرة أن يناولني صور سفرته الأخيرة إلى لندن باليد، ترددت قليلًا، لم أكن أريد أن يفهم أنني فتاة طائشة وسهلة المنال. ليلتها كان قلبي يتضوَّر جوعًا للقائه وجهًا لوجه. جاء في الساعة الواحدة. الجميع في بيتنا نائم، وأخي إبراهيم خرج لنزهة في معسكر شبابي في البر، وسينام هناك. طلبت من أختي مشاعل أن تراقب الجو وتعطيني إشارة حالما تسمع صوت باب غرفة أمي ينفتح.

لبست ثوبًا أخضر مزيّنًا بالورد الأبيض، ووضعت كحلًا أسود، وحمرة على شفتيَّ. فتحت الباب قليلًا وانتظرت خلفه بعد أن أطفأت النور الخارجي لكي لا يتبيَّن أحد ملامحه إذا ما رآه. أخذ يدور بسيارته حول المنزل ليتأكد من خلو المكان من أي كائن قد يكتشف أمرنا. رأى نور الباب الخارجي يطفأ وهي الاشارة المتّفق عليها بيننا، فاقترب بسيارته من الباب ببطء، سمعت صوت فحيح السيارة وهي تقترب بهدوء، فتحت الباب أكثر بقليل، وانتظرت، سمعت صوت باب السيارة يقفل، وهو ينزل منها، رأيت طرف ثوب أبيض يقترب من الباب، فتسارعت دقات قلبي حتى كدت أسمعها، جفَّ حلقي من الخوف، أصبحت يداي باردتين وهما

ترتعشان، دخل وهو يتشجّع بابتسامة. بدا لحظتها أكثر ثباتًا مني!

لأول مرة أشاهد وجه الرجل الذي أحب، وجهًا لوجه؛ عيناه تلمعان، أسنانه البيضاء تلمع وسط ابتسامة عريضة مبتهجة باللقاء، ثوبه الأبيض يلمع، وصوته يلمع بتحيته الدافئة:

– مساء الخير يا حبي، أخيرًا!

كان كل شيء في حضوره متورّدًا بالحب، ويتحرك على عكس ملامحه الصامتة في صوره التي ترقد مختبئة في إحدى الأدراج داخل غرفتي.

قال لي مازحًا:

– ماذا؟! هل تشجِّعين المنتخب الوطني؟

وأشار إلى لون فستاني الأخضر.

ابتسمتُ وأنا خجلى، دقات قلبي لا زالت تتسارع إلى درجة أنني لم أقوَ على تنظيم أنفاسي، وفي كل مرة تخرج الحروف من فمي، أظن أنني سأفقد وعيي في الحال. قدَّم لي كيسًا صغيرًا تخرج منه قرنفلتان، واحدة بيضاء والأخرى حمراء، وصندوقًا صغيرًا أبيض فيه عطر فرنسي من ماركة "آنيس" نسائي ناعم، يرتجف قلبي كلما شممته حتى اليوم.

تسللت رائحة القرنفلتين إلى أنفي. للمرّة الأولى في حياتي أرى وردًا حقيقيًّا. أعرف الورد عادة في نصوص التعبير، وفي صور

زفاف أخوات صديقاتي، وفي الأفلام المصرية، إضافة إلى الورود البلاستيكية التي تصفُّها أمي في زوايا البيت. أوّل مرّة في حياتي أشاهد قرنفلة حية تفوح أريجًا، يقدِّمها لي رَجلي الذي أحب عنوانًا لحبه العريض كصدره، أمسح العرق عن جبيني، وأمرر يدي على شعري للاطمئنان إلى زينتي؛ مرة أمسح بيدي مقدمة شعري، ومرة أرفعه عن عيني، ومرة أضع أصابعي على خدَّي وأمسح أحمر الخدود. كان شعوري بالحرج يشغل قلبي عن النظر إلى وجهه، والتمتع بغزله اللطيف. أرتجف خوفًا من أن تفضح أمي أمري وخوفًا من عودة أخي إبراهيم فجأة، أو أن يظهر إبن الجيران الذي يغازلني ويأمل أن يحظى مني بإشارة أو رد، ويرى سيارة الرجل الذي أحب، وهي تلمع، فهي السيارة الوحيدة التي تلمع في حارتنا، فيغار ويخبر أخي إبراهيم انتقامًا مني. تمنيت من كل قلبي أن يذهب سريعًا، لأعود وأسبح في حبه بهدوء، فحبه في غرفة نومي أسهل من حبه على الباب وأنا خائفة. حاول أن يطيل الوقوف بالباب، معتقدًا أن خجلي يمنعني من الكلام معه عن حبنا، بينما أنا أختنق خوفًا. حاول الاقتراب مني، قرَّب وجهه من وجهي، أمسك خرزات الحزام على خصري وراح يلعب بها. قلت له:

– لو سمحت، خلاص، أخرج الآن.

– حسنًا، ولكن بشرط، أريد قبلة قبل أن أذهب.

كدت أن أضحك من شدة المفاجأة. قلت له ساخرة:

– واللّٰه... إنك جريء.

قال ويده تسحب طرف الحزام المتدلي من على خصري:

- أجل، ماذا تظنين؟ سآخذها يعني سآخذها.

نزعت يده من حزامي بقوة وقسوة. كنت جادة، فانقطعت الخرزات في يده. قال معتذرًا:

- أووه، أنا آسف، قطعت لك خرزات الحزام.

انحنى ليلتقط الخرزات.

- دع عنك الخرز! هيا أخرج!

قلت عبارتي، ثم هبطت خلفه لآخذ الخرزات من يده وأصرفه، إلا أن رأسه في اللحظة نفسها ارتفع، وعاكس هبوطي، فاصطدم رأسه بشفتي، آلمتني الضربة، لا يهم الألم... ما كان مهمًا وقتها أن يخرج فقط، نظر إلى شفتي وقال:

- أف... دم!

شعرت بأنه يمزح، مددت إصبعي إلى شفتي التي شعرت بأنها انتفخت قليلًا، أمسك أصابعي قائلًا:

- لا، لا، انتظري.

وضع كفَّيه على أذنيَّ، وأدار رأسي نحو الضوء ليرى شفتي المجروحة. بدا أنه يريد أن يتأكد من الجرح. وقبل أن أنظر بدوري في عينيه لأعرف نيته، كان وجهه يهبط بظلاله ويقبِّلني.

(٨)

كان أبي جنديًا بسيطًا وأميًا. كان برتبة رقيب أول عندما ترك العمل في العسكرية، لكن أحاديثه بقيت مملوءة بالإعتزاز بماضيه العسكري. يحلو له دائمًا الحديث عن عمله في كتيبة العسكر التي شاركت في التدريبات، وما إن ترى أمي نشوة الإنتصار في عينيه حتى تناكفه بقصة عشقه لإمرأة إسمها هند، واحدة من الجارات البعيدات في الحي اللواتي يظهرن إلى الشارع، بطبقة رقيقة من غطاء الحرير الأسود على وجوههن، فيلمع الجزء الظاهر من ملامحهن بجمال أكثر مما هنَّ عليه.

تقول أمي إنه سمَّاني على اسمها لأنه وقع في عشقها.

سمعت الحكاية ذاتها مئات المرات، وأبي ينكرها. يقول إن ما أعجبه هو اسم هند فقط، لأنه لم يكن اسمًا شائعًا ذلك الوقت. لكن أبي يسعد بغيرة أمي النادرة عليه، ويظن أنها علامة حب من أمي التي لم تظهر له مرة أنها تحبه، فيبتسم ويقول:

– الله يهديك يا هيلة، وشو له عاد هالكلام عند البنات؟

ترى أمي أن قصص الحب قلة حياء ومسخرة، على عكس أبي

العسكري الحالم الذي يحب قصص العشق، ويحب الحديث عنها كواحدة من حكايات التاريخ البديعة، فيحدثنا عن العشق البريء في قريته، ولا يجده معيبًا. يحدثنا عن قصة قيس وليلى بطلَي أشهر قصة عشق في التاريخ العربي.

قلت له:

- هل يمكن أن تكون ليلى العامرية واحدة من جداتي؟

ضحك وقال:

- يمكن يا بنتي تكونين واحدة من بنات ليلى العامرية!

كان إبراهيم يفتح كتاب "منهاج السنَّة النبوية للشيخ ابن تيمية"، يضع رأسه فيه ويهزُّ رأسه امتعاضًا من تساهل أبي معنا في حكايات العشق. بلغ به الحنق مبلغًا جعله يرفع رأسه، ويقول:

- أنا لا يشرِّفني أن أكون حفيدًا لليلى العامرية، الشعراء يتَّبعهم الغاوون وكلكم غواة.

التفتُّ إليه وقلت:

- ومن قال إنك حفيد ليلى العامرية؟ أنت حفيد مسيلمة الكذاب.

نهض إبراهيم بسرعة واتجه نحوي، أمسكني وجرَّني من شعري، فصرخت:

- أبي... الحق بي!

قالت أمي:

- تستاهلين يا أم لسان طويل.

كان أبي يضع إزارًا أخضر اللون خفيفًا على وسطه، يحب الجلوس في الصيف، وقت راحته، بالإزار، من دون لباس داخلي.

نهض أبي بسرعة، داست قدمه على طرف الإزار، انفكّت عقدته، انزلق الإزار إلى أسفل، كاد أن يسقط كله، ضحكت أختي عواطف وصفّق أخي الصغير سعود، فقد ظنَّ أننا نلعب.

يصيح أبي وهو يصلح إزاره ويقبض عليه بيديه، يشدُّ أخي الصغير إزار أبي ليلعب معه ويعيد المشهد، يدفعه أبي برجله، يصيح بإبراهيم الذي يركلني في بطني:

- اتركها يا حمار!

وصل أبي إلينا، نزع يد إبراهيم من شعري، ودفعه بقوة فارتطم بالجدار. ثار إبراهيم غاضبًا وصاح في وجه أبي:

- تضربني من أجلها! تضربني وأنا رجل البيت!

- لو كنت رجلًا ما مددت يدك على امرأة ضعيفة! هذه أختك، بدلًا من أن تردَّ عنها الظلم، تضربها؟!

خرج إبراهيم ثائرًا وهو يتمتم:

- هين... أورِّيك، وأورِّيها.

عاتبت أمي أبي قائلة:

- إبراهيم صار رجلًا بطولك، تضربه من أجل مقصوفة العمر هذه؟!

نظر أبي نحو إبراهيم الذي كان يسحب سترته من مشجب في الممر ويضعها على كتفه ويخرج. قال أبي متحسرًا:

- الأرعن! يفعل هذا أمامي! ماذا يفعل لو متُّ؟!

في منتصف السبعينات من القرن الماضي، كانت أحوال الناس قد بدأت تتغير. أضاءت مشاعل البترول ليالي الرياض المعتمة، وجلَت أمواله الغبش عن نهاراتها فسطعت البنايات الزجاجية وبرق الإسفلت الأسود في الشوارع المتربة وسالت الأموال في أيدي الناس ولمعت عقولهم بأحلام الثراء وقفزاته السريعة. كان أبي واحدًا من هؤلاء المغامرين؛ فتح مكتبًا عقاريًا مقلدًا كثيرين أدركوا أنّ الرياض تمرُّ بطفرة هائلة من بيع الأراضي وشرائها. بنى خلال تلك السنوات بنايتين كبيرتين وفيلا كبيرة لنا، وخلال عشر سنوات صار من أصحاب الملايين. إنتقلنا إلى بيت كبير من طابقين وحديقة كبيرة في حي العليا الشمالي الذي بدأ الناس يتجهون للسكن فيه. كان وقتها حيًا جديدًا خاليًا من البيوت. صار لدينا خادمة وسائق.

إعتبر أقارب أبي انتقالنا خطوة هوجاء ولاموه عليها، فقد كان

حي العليا أشبه ببرِّية معزولة عن المدينة إذا ما قورن بحيِّنا الجنوبي حيث تتلاصق البيوت، وحيث يسكن معظم أقربائنا، والذي نعرف كل سكانه.

ذهبنا إلى حي جديد لا نعرف من جيرانه القلائل أحدًا.

سكان حيِّنا الجديد وجهاء يسكنون قصورًا كبيرة. بعضهم كان فقيرًا قبل الطفرة، والبعض الآخر كان لا يملك سوى بسطة عملات يعتاش منها في موسم الحج، فصار مالكًا لبنوك كبيرة، وبعضهم صار تاجرًا من أصحاب الشركات والمؤسسات المعروفة في الرياض أو موظفًا مهمًا في إحدى المصالح الحكومية.

كان لجيراننا في حي العليا في ذلك الوقت بريق خاص يلمع بالمال والصيت، باستثناء أبي البسيط القادم من الحي الجنوبي، وماضيه الذي لا يحمل سوى رتبة رقيب أول. بعد عشر سنوات، صارت العليا حيًا مكتظًا في وسط الرياض، وغدا الجنوب بعيدًا وعصيًا على وصول الناس إليه. لم نعد نرى أقرباءنا إلا في المناسبات البعيدة، وفي الأعراس القليلة. ولأن البنات لا يفضِّلن الزواج باكرًا، صارت جملة "البنت تريد أن تكمل دراستها" جملة شهيرة وشائعة لا تحرج أحدًا تقال أحيانًا للعريس غير المرغوب فيه.

قلب أبي الرقيق يحب البنات، على عكس والدتي التي تحب الذكور.

كان يمكن التفاهم مع أبي في أمر زواجي لولا تلك القصة

التي كسرت ظهري وجعلتني عزلاء في حربي الشرسة مع والدتي وأسلمتني إلى ابن أختها منصور لأنها تعرف أنه الوريث الجدير بالسلطة المحكمة.

كان شجار أبي وأمي المتواصل منفذنا الوحيد نحو الحرية؛ فحين يختلفان يصبح سهلًا عليَّ وعلى عواطف ومشاعل التوجه نحو أبي للفوز برخصة الخروج إلى السوق، في حين ترفض أمي مرافقتنا إليه بسبب خصامها مع أبي. لكن فرحنا لا يستمر طويلًا، فما إن نهمُّ بالصعود إلى السيارة حتى نجدها قد لبست عباءتها وتبعتنا. تركب في الخلف لأنها لا تحب الجلوس مع أبي في المقدمة عندما تكون متخاصمة معه، وحين نصل إلى السوق تهمس لإحدانا ونحن نهبط من السيارة:

- قولي له يعطيني فلوس.

ما إن تخبره إحدانا بطلب أمي حتى يرفع صوته لتسمعه:

- بعد، بعد أخلاق شينه وتبي فلوس!!

يضغط على دواسة البنزين، ينطلق ويتركنا في أول السوق نغالب ضحكنا ونكتمه في سرنا على أمي التي لم تكن الطرف الذي نتعاطف معه في خصامها مع أبي.

تظن أنه يفعل هذا نكاية بها، ليغيظها ويذلها ويضعفها لتلبي مطالبه، خصوصًا.تلك المطالب الليلية التي لا تنطفئ مهما تقدم في السن.

كانت أحيانًا تضطر صاغرة فتلبيها، مدركة أنه لا بد أن ترخي من عنان قسوتها عليه، ومن مجابهته ومشاكسته لكي تشتري عقدًا من الذهب أو ثلاجة جديدة. لم تكن تعرف التودد مثل الكثير من النساء، فهي منذ تزوجته وجسدها يتصلّب مثل عمود من الخشب تتمنّى لو تضربه به يومًا، فهو الرجل الذي اختطفها من طفولتها وقريتها وصديقاتها وبراءتها، وهي لم تسامحه أبدًا على ما فعل بها. لا تنسى تلك الليلة الأولى عندما ربط قدميها ويديها وافترسها مثل عفاريت البئر المسكونة التي كانت تخيفها في قريتها، وترك عظامها تطقطق طوال الليلِ خوفًا ورعبًا. قررت أن تكرهه منذ تلك الليلة، وأن تعذبه طويلًا بسبب ما فعل، حتى لو طال الزمن بهما.

كان عليها أن ترضخ له كلّما أقامت قريبة لها عرسًا فاحتاجت أن تشتري ثوبًا أو عقدًا من ذهب عيار أربعة وعشرين قيراطًا. لم يكن ذلك حبًا بالثياب والذهب، بل لتتَّقي قرصات قريباتها اللواتي يسخرن أمامها من كل امرأة تمرُّ أمامهن بيد أو رقبة عارية من ذهب قيراط أربعة وعشرين. تؤكد قريباتها لها أن امرأة تترك يدها أو رقبتها بيضاء علامة أكيدة على أن قدرها عند زوجها بخس، وقيمتها رخيصة، تعيش كأنها خادمة أو عبدة تخدم في النهار وتفترش في الليل ولا تخرج منه حتى بعقد من ذهب.

تخاف هيلة أن تكتشف النساء مرارة خصامها الدائم مع عثمان، وتعمل ما بوسعها لكي لا يعتقدن أنها رخيصة عنده، ولا تسمح لهن بالتسارر خلف ظهرها أو إظهار شفقتهن المزيفة عليها

كما يفعلن بالأخريات حين تبدأ حفلة النميمة بالجملة المعهودة: مسكينة، حظُّها قليل!

تحاول هيلة التزيُّن بقطعة كبيرة من ذهب عيار أربعة وعشرين قيراطًا في كل مناسبة، تجدِّدها كل فترة من الزمن، تطول أو تقصر، بحجم خصامها مع عثمان، لكنها يجب أن تدفع بالمقابل ليلة تدير رأسها جهة الجدار وتعاند معدتها التي ما إن تشتمُّ رائحته وهو يقترب منها حتى تنقلب وتخنقها، وتتصبَّر حتى ينتهي لتفرغ عشاءها تلك الليلة في الحمام المجاور، فيدير عثمان رأسه ويستغفر ويحوقل، لكن الرجل الذي بداخله يخرج لسانه في وجهه ويقول: هي لا تحبك يا حمار.

كان يعانده مع أنه يعرف أنه على حق دائمًا؛ فهو لا يقوى على مواجهة هذا الاعتراف لأنّه لا يملك شجاعة اتخاذ القرار المترِّتب عليه، فيجيبه: الحمار، والله، اللي جابته أمك.

وينام قرير العين، مرتاحًا كعادته كل ليلة، مهما حصل.

(٩)

من الذي وشى بنا ذلك اليوم؟ هل هي الصدفة المشؤومة أو صديقة أمي التي تحب التلصُّص على أحاديث البنات العائلية، عندما نتبادل بعض الأسرار المسموح بها وسط بنات العائلة، مثل مرور رجل وسيم بقربنا، أو التحدث هاتفيًا إلى إحدى الشخصيات المعروفة في المجتمع لنعرف ما إذا كان مثل كل الرجال يحب مغازلة النساء وخيانتهن؟ نحب دائمًا النتيجة التي ما تغيرت أبدًا ونحن نظن أننا نفضحه إذا تجاوب، نردد مثل فتيات حكيمات: هكذا هم الرجال، خونة لا يقاومون صوت أنثى. كل رجل يحب الغزل واللهو مع النساء، هذا عدا قصص الشباب الذين يطاردوننا عند خروجنا من المدرسة أو في السوق، أو قصة الشاب الذي رمى بورقة تحمل رقم هاتفه في سيارة إحدانا فقامت بشتمه، فردَّ عليها بطرفة مضحكة.

مع أن حكاياتنا مجرَّد مشاغبات مراهقة، إلا أن منافسات بنات العائلات الغيورات تفضحنا أحيانًا. وأحيانًا أخرى يفضحنا تلصُّص أخت كبرى علينا، فتوصل بعض الأسرار إلى أمهاتنا.

هذه الصديقة عكَّرت مزاج أمي ذلك اليوم، مع العلم أن مزاجها دائم التعكُّر. صديقة أمي تلك، ذات الوجه المجدور والعين المصابة بالحول، نقلت لها نميمة ابنتها عليَّ، وفُضح لأمي سرٌ لم تكن تعرفه، ثم قالت: انتبهي لبنتك هند، الله يستر منها!

راع أمي أنها، رغم كل احتياطاتها التلصُّصية، قد فاتتها أشياء أصرَّ عقلها على أنها أكثر مما تحدثت بها صديقتها. شعرت بطعنة نجلاء لخبراتها ودهائها وقوَّتها وسلطتها، فقررت ألا تغفر لنفسها هذه الهفوة. إمتلأ رأسها غضبًا عنيفًا فلم تعد تسمع باقي أحاديث التلصُّص على باقي بنات العائلة، فلو أنها سمعتها لعرفت أنني مجرَّد كومبارس هزيل في مسرحية عبث كبيرة. قررت أمي أن تخرج باكرًا من مدينة الملاهي، خلاف اتفاقنا معها، وبسبب ما سمعته عني قررت أن تؤكد لها أنها لن تنتظر حتى المساء، فقامت من فرط غضبها تبحث عني ودخان غيظها يصعِّب عليها الرؤية.

في عصر ذلك اليوم تواعدتُ وموضي في مدينة الملاهي، وكنا قد اتفقنا على ملاقاة صديقها والرجل الذي أحبُّ في المقهى المجاور للحديقة.

حين دخلنا المقهى، كانا هناك بانتظارنا. جلست موضي وصديقها إلى طاولة، وأنا و"هو" إلى طاولة أخرى، في القسم المخصَّص للعائلات، حيث تفصل القواطع الخشبيَّة الطاولات عن بعضها. سمحت لنفسي للمرة الأولى بأن أنظر في عينيه وأبتهج، وأسمعه بعيني أيضًا، أتملَّى في وجهه الجميل، وأخجل أن أقول له: "أحبك".

للمرة الأولى أشعر بالسعادة التي لا يرافقها الخوف. طال حديثنا. قال لي بعد أن بدأ الحديث يخفت قليلًا:

- تشبهين الممثلة سلمى حايك، شاهدتها في فيلم فيديو.

- وأنت تشبه راغب علامة.

ضحك وسألني:

- وهل تحبين راغب علامة؟

- أموت فيه.

نظرت إلى ساعتي، قفز قلبي، وقفت وناديت موضي من وراء الحاجز الذي يفصل الطاولات عن بعضها:

- وجع موضي! الساعة سبعة!

ردت عليَّ من خلف الحاجز، وصوت قبلة عالية يقطع جملتها نصفين:

- إهدئي يا بنت المجنونة، لسَّه الوقت بدري.

- بدري من عمرك ياختي، إن لم تأت الآن معي، مشيت أنا.

مشيت على عجل، سمعتْ موضي صوت حذائي يطرق وجه الأرض الخشبية للمقهى فلحقت بي. انتبهتُ إلى أنني لم أودِّع رجلي الذي أحب، لكنّ الوقت مرَّ سريعًا وخفت من أن تكتشف أمي غيابي. بسبب ارتباكي قلت له:

- مع السلامة يا راغب.

نظرت موضي إلى الرجل الذي أحب وهي تضحك.

- صار اسمك راغب؟

سمعتهم يضحكون وقلبي يطرق خوفًا.

عند باب حديقة الملاهي، كانت أمي واقفة تنفخ دخان أعصابها المحترقة مثل قطار، ولما رأتني بدت سعيدة لأن ظنونها صدقت. لم يكن قلبها متألمًا لخيانتي ثقتها؛ كل ما كان يشغلها وجبة العشاء اللذيذة التي يشكّل ضربها لي طبقها الرئيسي. انطلقت نحوي، اصطدمتُ بها، عاجلتني بجرّي من شعري، لطمتني على وجهي أمام الناس، صرختُ فيما صرختْ لصراخي إحدى النساء اللواتي شاهدن الواقعة، ثم سمعتهن يقلن: مسكينة! حرام!

ظلت أمي صامتة تصرُّ على أسنانها. كنت أسمع لها فحيحًا وزفرات، صرخت مرة أخرى بصوت عال فتجمَّع الناس حولنا، خجلتُ من نفسي فكتمتُ صراخي. أنا أيضًا صررت على أسناني وصرت أتأوه بصمت، وراح لعابي يسيل على خدي من البكاء، فيما هربت موضي إلى الخارج.

يا مقصوفة العمر، يا ليت الله يأخذك ويريحني منك!

قالت لي أمي هذه الجملة وهي تدفعني إلى داخل مجلس النساء الكبير. أقفلت الباب، .مزّقت ثوبي لأنه من دون أكمام، وقذفت بشالي الحرير إلى القمامة.

أبقتني حبيسة في مجلس النساء في الطابق الأرضي ومنعت إخوتي من رؤيتي أو الحديث معي أو حتى من المرور أمام الباب. ولو لم يكن الوقت آنذاك عطلة المدارس الصيفية، لكان مصيري الحرمان من الذهاب إلى المدرسة. نهار الصيف طويل وممِلٌّ وأنا أجلس وحدي في غرفة مغلقة من دون هاتف وأخوات، ومن دون موضي التي أذكرها وأضحك عليها.

أشفقت أخواتي البنات الصغيرات عليَّ، فناولنني بعضًا من أكياس "الفشار" و"البيبسي"، والـ "كيت كات" من قضبان النافذة، وطلبت إليهن أن يجلبن لي بعض المجلات لأتسلَّى بها، ودفترًا وقلمًا.

رحت أتمرَّغ في تفاصيل لقائي الأخير. هرب عقلي من سجن الغرفة إلى ذكريات اللقاء، أتغذَّى بها في ظلمة اليوم الطويل وأتسلَّى بتذوُّق طعم التفاصيل التي عشتها معه، أتملَّى على مهل من دون خوف أو عجلة وجه الرجل الذي أحب، كلماته، نكاته، تلميحاته... بمَ ذكَّرته بسلمى حايك، ممثلة الإغراء التي تتعرَّى في كل مشهد؟ هل كان يقصد وجهها فقط أو أشياء أخرى منها كان ذكرها لو طال وقت لقائنا؟ أدفن وجهي في يدي وأخجل مما قد يكون تصوَّره وما قد يقوله. أغفو أحيانًا وأحلم به. كلما داهمني الملل أدرت شريط الذكريات ورحت أتفرَّج عليها، أكمل ما نقص فيها بكلام أسمع نفسي وأنا أقوله، وأحيانًا أقوم من المقعد وأتمشَّى في الغرفة وأقلِّد الكلام الذي كان من الممكن أن يحدث، أصلح المشاهد الناقصة، مشهد الوداع مثلًا. ها أنا أقوم بهدوء من دون

عجلة وخوف، أمدُّ يدي نحوه وأقول:

- حسنًا، يجب أن أذهب.

يردُّ عليَّ:

- لا، لا تكوني سخيفة، اجلسي قليلًا.

- أرجوك اعذرني، لا أستطيع، أنا مستعجلة.

يُبقي يدي في يده، أشعر بأنها قد سخنت، يضغط عليها بشدة. أسحب يدي لكنه يقبض على أصابعي، ربما يقوم بحركاته المعتادة. يفاجئني بقوله:

- تعالي، أريد أن أخبرك سرًا.

- ماذا؟ ستكذب عليَّ كعادتك؟

- لا والله، تعالي، لا أريد أن يسمعنا أحد.

ثم يدخل رأسه تحت شالي الحرير الأسود ويغطِّي وجهينا، ثم يقبِّلني.

بعد يومين، نشب خلاف بين أمي وأبي، ما دفع بوالدي إلى القول إن أمي مصابة بمرض الشك، وإنها تدين كل من في البيت وتشك بأمرهم وهم أبرياء، وهو نفسه لا يسلم من شكوكها، وهي لا ترضى عن أحد طوال عمرها، وبناء عليه، فإن شكّها بي ليس في محله. عندها جاء وفتح باب المجلس، من دون أن ينظر

في عينيَّ، سكتت أمي التي لا تخاف من أبي إلا إذا غضب، وهو لا يغضب إلا نادرًا.

لا أدري لماذا فعل أبي ذلك. هل كان يشكّ فعلًا في رواية أمي عني، أو أنه لم يكن يريد أن يصدِّق ما روته عني، أو أنه أشفق عليَّ من طول عقابها لي وقسوته؟

إكتشفت أثناء سجني القصير أن الكتابة عمل ممتع وسهل، فقد أدخلتني عالمًا مشتركًا مع أناس كثيرين، أختارهم بنفسي، يحبونني وأحبهم. صنعتُ لي مغارة باردة وحصينة لا يدخلها أحدٌ ولا يفتش أحد عمَّا في داخلها من أسرار. محصَّنة بشيفرة لا يفكّها إلا أنا، فوالداي لا يجيدان القراءة.

لولا صديقتي موضي وقلبي الضعيف لما حدث لي كل هذا.

فهي خطَّطت لكل شيء في مراهقتي، رتَّبت تعرُّفي إلى رجلي الذي أحببت، ثم لقاءه.

بعد مرور ستة أشهر على تعارفنا، لم أكن قد قابلت الرجل الذي أحب سوى ليلة القرنفل تلك، بينما كانت موضي تواعد صديقها في بيتها، يمرُّ بها في بعض الليالي وتدخله غرفتها، ويظلان طوال الليل معًا. مرة جاءت إلى المدرسة وهمست لي بأنها تركت رجلها الذي تحب نائمًا في غرفتها. غالبه النوم بعد حميم القبل والملامسات الخارجية الساخنة التي لا تخدش عذريتها. على الرغم من رغباتهما المحمومة، كانا حريصين على الوقوف عند

ذلك الحد، فهي تعرف أن عائلتها لن تتساهل معها في هذا الأمر، ستقتلها من دون ريب، ولو عرف زوج المستقبل بأمرها سيفضحها ويطلّقها. وصديقها أيضًا لم يكن زاهدًا بها، لكنه يخاف من عائلتها التي تضرب بجذورها في أرض قبيلة بدوية شديدة السطوة والقوة، ولن ترضى بأقل من سفح دمه غسلًا لعارها.

داهمهما الصباح و لم يفطنا إلى مرور الوقت، فأغلقت الباب عليه وجاءت إلى المدرسة.

موضي تملك جرأة نادرة، بينما نحن البنات لا نستطيع مجاراتها. كانت تستطيع أن تهبط إلى أهلها والرجل نائم في غرفتها من دون أن يرفَّ لها جفن، بينما ينكشف أمري أنا عند أمي مرات ومرات. تستطيع أمي أن تكتشف مع من أتحدث في الهاتف، إن كان رجلًا أو امرأة، من نظرة واحدة في عيني. مرة تحاذقت حين دخلت عليَّ وأنا أكلم الرجل الذي أحب في مجلس الرجال البعيد في آخر المنزل. قطعتُ المكالمة لكنني واصلت الحديث لأوحي لأمي بأنني أكلم صديقتي: أيوه يا موضي وبعدين؟

خطفت مني السماعة، وضعتها على أذنها، سمعت طنين الهاتف. لم يكن هناك أحد على الخط، عرفت أن الخط قد قُطع وانتهى الأمر، رمت سماعة الهاتف في وجهي، فسقطت على الأرض. نظرت إليَّ، قلت:

– إنها موضي، قطعت الخط لأنها تخاف منك.

مشت أمي مبتعدة وهي تدعو على كل البنات في العالم بقصف العمر من دون تأخير.

تملك موضي أعصابًا كالحديد لا أملكها أنا. ففي عطلة الصيف، حين صار إخوتها يسهرون حتى الساعة الرابعة فجرًا، تعذَّر عليها أن تُدخل رجلها الذي تحب في الليل، فطلبت إليه أن يلبس عباءة وغطاء على وجهه كما تفعل النساء، ويدقَّ الجرس ويدخل كأنه صديقة لها.

دق "الرجل الذي تحب" بعد أن أوصله "الرجل الذي أحب" حتى باب البيت ومشى. فتحت موضي الباب وأخبرت والدتها وإخوتها الذين يشربون الشاي في الصالة السفلية وسط البيت بأنّها ستصعد هي وصديقتها إلى غرفتها في الدور الثاني. مرَّ رجلها الذي تحب أمامهم وصعد الدرج، بوجهه المغطَّى بمنديل أسود وعباءته السوداء طويلة التي كاد أن يتعثر بها عند الدرجة الأخيرة. وفرحًا بالنجاة، استعجل الوصول فزلت قدمه عند حافة الدرجة الأخيرة وتعثر. رنَّت ضحكة موضي المجلجلة، فردَّد بلاط الرخام في الصالة العلوية أصداءها. سألتها أمها من الصالة السفلية:

– ما بكما؟

– لا شيء يا أمي، صديقتي تعثرت.

دخلا غرفتها وتحدَّثا حديثهما الغرامي المعتاد. خلع عباءته وثوبه وعلَّقهما على مشجب الغرفة. تمدَّد على السرير وطلب

إليها أن تصنع له الشاي. نادت موضي على الخادمة عبر الهاتف الداخلي، لكن أحدًا لم يجب. خرجت من غرفتها وأغلقت بابها بالمفتاح تاركة إياه في قفل الباب، نزلت الدرج بخفة وسعادة، هبطت واتجهت نحو المطبخ. كان المجلس قد انفض وخلت الصالة السفلية من الجمع العائلي، ما عدا أمها التي كانت تتفرج على أحد البرامج التلفزيوني. غابت موضي طويلًا، نهضت والدتها وصعدت إلى غرفة موضي، فارتابت حين وجدت غرفة ابنتها مغلقة بالمفتاح.

عادت موضي إلى الغرفة. وجدت أن قفل الغرفة مفتوح. سألها الرجل:

- هل أنت من فتح الباب قبل دقائق؟

سقط قلب موضي على أرض غرفتها الرخامية وتتفتّت إلى قطع زجاجية صغيرة. خافت أن تكون أمها التي لم تجدها عند التلفزيون عندما صعدت بالشاي، هي التي فتحت الغرفة. أو "ربما" هي الخادمة.

رنَّ الهاتف الداخلي في غرفة موضي. رفعت السماعة وحلقها جاف وأنفاسها تكاد أن تتوقف. سمعت صوت والدتها ضعيفًا مختنقًا يقول لها بحزم:

- أخرجيه من غرفتك حالًا!

نامت والدة موضي أيامًا في الفراش، متعلّلة لأبنائها بأنها

مريضة، رافضة أن تردَّ على موضي بكلمة واحدة. عرفت موضي أن أمها انهارت بسبب الصدمة. بكت عند قدمي والدتها، قبَّلتهما:

- أمي... أرجوك قومي من فراشك، إبصقي في وجهي، أقتليني، لكن كلّميني كلمة واحدة.

ظلّت أمها شهرًا كاملًا لا تحدّثها. كانت بالفعل لا تقوى على الحديث، أصابها الرعب مما كان يمكن أن يحدث لابنتها اليتيمة التي تحبها كثيرًا لو أن واحدًا من إخوتها هو من فتح الباب! لكان قتلها وقتله معها ودخل السجن وربما أعدم!

أصاب الأم الرعب من فكرة أنها قد تفقد إبنتها وابنها في فضيحة مدوّية. لو أن أحدًا غيرها شك بأمرها! تعرف أنّها لا تستطيع أن تفعل شيئًا، لا تستطيع إخبار إخوتها، لكنها لا ترضى بما حدث، فالتزمت الصمت رعبًا وخوفًا وغضبًا.

ذبلت موضي تحت قدمي والدتها وهي تبكي، يومًا بعد يوم، ترجوها أن تقوم من فراشها وتعاقبها، لكن أمها بقيت صامتة يخنقها الخوف.

قالت لي موضي:

- يا ليت أمي تفعل بي ما فعلت بك أمك، وتكلّمني.

(١٠)

دخلت شذا المكتب، رأت الرسالة التي تركها لها الشاب الثلاثيني، سألتني:

- هل حضر إلى هنا؟

نظرت إلى الورقة الخضراء التي في يدها، فعرفت أنها تسأل عن الذي كتبها. قلت:

- نعم، وترك لك هذه الرسالة.

قرأتها وقالت:

- يا عمري.

أخذت الهاتف وتحدثت:

- حبيبي، كيف حالك؟ مررت بالمكتب و لم تجدني؟ ذهبت في جولة عمل في أجنحة المرضى، أما زلت في المستشفى؟ حسنًا مرَّ الآن، هند لديها قهوة تشهد العرب كلها على أن لا مثيل لها، لها

رائحة جميلة توقع بالطير من كبد السماء، بانتظارك!

نظرت إليها وقلت:

– الآن عرفت سرَّ كل هذا التجمُّل منذ الصباح! هل تظنّين أنني أصنع القهوة لمواعيدك الصباحية يا ست شذا؟

– غصبًا عنك وعن كل أهلك.

ردّدت عليها وأنا أضحك:

– والله كلك ذوق.

ما إن أكملت جملتي حتى طرق الباب ودخل الشاب نفسه الذي جاء يسأل عنها قبل ساعة. هممت بالخروج من المكتب كي أمنحهما فرصة البقاء مع بعضهما وحيدين.

دفعتني شذا وهي تقول:

– ماذا؟ هل نلعب لعبة عسكر وحرامية؟

– معليش يا شذا، القهوة عندك، والتمر في السلة تحت الطاولة.

– حسنًا، صبّي لنا القهوة، وأعرّفك على الأستاذ وليد.

– أهلًا وليد.

– أهلًا. أنت صاحبة الرواية.

قلت في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله!! عدنا للرواية من جديد!

قالت شذا:

- أية رواية؟

قال:

- "المسيح يُصلب من جديد".

قلت:

- اخفض صوتك!

ضحكا، وسألني وليد بصوت منخفض:

- لماذا؟

- الجماعة هنا لا يعترفون بحكاية الصلب هذه، وأنت تعيدها مرتين؟

- صديقتك دمها خفيف يا شذا.

قالت شذا:

- ومثقفة أيضًا! تقضي كل يومها في قراءة الروايات، مرة "المسيح يُصلب من جديد"، ومرة "اللامنتمي"، ومرة "قصة موت معلن"!

قال وليد:

- من تحبّين أكثر، كولن ولسن أو كازنتزاكي؟

- تقريبًا كازنتزاكي.

- كازنتزاكي صاحب فلسفة هادئة، وويلسون مشغول بالإنسان الخارق، والاثنان مشغولان بالله، لكن ويلسون يحب أن يصعد إليه ليجلس بجانبه ويحاوره، بينما كازنتزاكي يحب الجلوس في غابة الله ليتأمله.

قالت شذا:

- هاه، وجدتِ الآن من يناقشك في كتبك أحسن مني.

عندما خرج، سألتني شذا:

- ما رأيك؟

- شاب لطيف، الله يوفقك.

- يوفّق مين يا ماما؟ هذا وليد أخوي ابن أمي وأبوي يا عبيطة. وليد يعمل في الإدارة الهندسية للمستشفى، في المبنى المجاور، وجاء لأن لديه موعدًا هنا مع الطبيب.

هل ألحق به لأعيده، لأستمع إليه من جديد؟ هل يمكن أن أقبض على الكلمات التي قالها قبل قليل، كي أعيدها للحياة مرة أخرى، أتفرّس معانيها العميقة وروحها النضرة بالوعي المتدفّق كوجه نهر رائق، أعيد سماع صوته الهادئ كخطو عابر طريق يتنزه في ممرّ غابة خضراء؟

صرخ قلبي حتى أنني سمعت صوت صداه يتكسَّر على صخور جبال طويق الشمالية، ويصعد للسماء وهو يجرُّ هواءً جديدًا.

- أخوك؟!

دخلت علينا جهير، سكتنا، أخرجت شذا سيجارة من حقيبتها وقالت وهي تنفخ في وجه جهير:

- يا أختي، السلام سنَّة.

لم تردَّ جهير عليها، رمقتها بنظرة غاضبة، ثم أخذت شيئًا من درجها وخرجت. ضحكتُ عليها وقلت:

- شذا توقَّفي، لا تستفزِّيها!

- لا تهتمي لأمرها، سبق لها أن اشتكت من سجائري إلى السيدة المديرة، وهم الآن يبحثون لي عن مكتب مستقل. وعدوني بأن يعطوني المكتب الصغير في الجناح المقابل لجناح أربعة، ما إن يجهز، حتى ننتقل أنا وأنت إليه. هل رأيت؟ مصائب قوم عند قوم فوائد. أما ما تقوم به الحاجة جهير فهو مجرد حركات وتمثيل، الله يعلم أين تغطس، يقولون إنها تحب بيولوجيًا باكستانيًا مسلمًا يعمل في المختبر، وهي تقضي طوال وقتها بقرب مكتبه. ألم تسمعي بالمثل القائل "يا ما تحت السواهي دواهي؟".

- حرام عليك يا شذا! أنت تعلكين شؤون الناس كما تفعل ربَّات البيوت.

- طيِّب يا حبيبتي، خلِّيك في كتابك وصاحبك كازانوفا.

- يا شذا، اسمه كازنتزاكي، كازانوفا هذا صاحبك أنت.

(١١)

قالت لي أمي:

- سيمرُّ منصور ليأخذ مي في رحلة إلى الزلفي كي ترى والدته.

دخلتُ غرفتي لأغيِّر ثيابي وأستريح بعض الوقت. أدرت جهاز التسجيل وغفوت على صوت الموسيقى وهي تهبط على أضلعي كشلال من الماء وتغسلني، ثم تأخذني نحو نهر طويل يمتدُّ ويعلو ليتشابك صعودًا مع غيم أبيض. دخلت حارة قديمة عرفتها في طفولتي وأخذت أنظر إلى المباني في سوق الديرة القديمة. أعرف هذه السوق جيّدًا، جئت إليها مرارًا مع أمي منذ كنت صغيرة. تتسوّق أمي دائمًا هناك وتخرج بأكياس كثيرة، تدفع دائمًا نصف الثمن الذي يحدّده البائع. تشتري منه كريمات وربطات لشعرنا وحناء لشعرها وصينية للشاي - تحبّ أمّي صواني الشاي كثيرًا - وقماشًا لزواج طرفة ابنة عمتي.

تشتري لي ولمشاعل وعواطف ثلاثة فساتين، من اللون ذاته والموديل ذاته، نلبسها جميعًا بفرح. تشابه فساتيننا هو الحل

الوحيد لإطفاء الغيرة التي كانت على الدوام سببًا للشجار بيننا، والذي يصيب أمي بالصداع.

جدران السوق ودكاكينها في الحلم مهدمة، وبيوت الناس تنكشف للمارة. مشيت في الحارة نحو السوق، كنت أريد أن أشتري كاسيت فيه أغنية قديمة لمحمد عبده اسمها "ساري، أصوت لك" بحثًا عن النشوة التي تبعثها تلك الأغنية في دمي، ثم رنَّ جرس خفي ينبئ بخطر داهم، ركضت نحو سرداب كبير، شاهدت النساء يهرعن إليه، هؤلاء النسوة لا يشبهن نساء الرياض، بل يشبهن النساء السود الأفريقيات اللاتي يعملن خادمات في بعض بيوت الرياض الكبيرة. لم أشعر بأنني أنتمي إليهن، لا بلون بشرتي ولا بثوبي الذي لا يشبه ثيابهن الملونة بالألوان الفاقعة، لكننا كلّنا في سجن واحد كبير. عرفت هذه الحقيقة عندما سمعت من ينادي على إسم إحداهن ويعلن انتهاء مدة احتجازها.

جميعهن أمضين وقتًا في السجن، لكنهن يعرفن أنهن سيخرجن منه. خرجن واحدة واحدة، سمعتْ كل واحدة منهن اسمها فخرجَت، إلا أنا، لم أسمع اسمي. قال لي الحارس بعد أن نظر إلى قائمة الأسماء في يده:

– إسمك ليس مكتوبًا في القائمة عندي.

إذن لا أمل لي أبدًا في الخروج من هنا، قلت لنفسي.

النساء الأفريقيات ذهبن إلى الحرية فيما بقيت أنا هنا، لا يعلم

أحد بوجودي ولا يأتي أحد لإنقاذي! شعرت بنوبة هلع حادة ومخيفة. جاء شاب طويل وقال للحارس:

- لا عليك، دعها تخرج على مسؤوليتي.

ثم نظر إليَّ وقال:

- حسنًا، لا عليك، إذهبي.

إمتدت يدٌ لتمسك يدي. شعرت بدفئها حقيقيًا، وكأن ماء ينسكب في راحتي، إنتفضت، صحوت، ووجدت عواطف تمسك بيدي، وقلبي يخفق، وهي تقول:

- بسم الله عليك، هل كنت تحلمين؟ سمعتك تهمهمين!

- أظن ذلك، كم الساعة الآن؟

- السابعة مساءً.

- لماذا تركتني نائمة حتى هذا الوقت؟

- بالكاد نمت نصف ساعة!

- نصف ساعة كثير، أنت تعرفين، كلما استيقظت من نومي في الظلام ظل قلبي منقبضًا طوال الليل، أشعر أنني في سجن.

عندما قلت هذه الكلمة تذكّرت حلمي والنساء السود.

قالت عواطف وهي تضحك:

- يا سلام، واحنا يعني وين ياختي؟

ثم قالت بطريقة مسرحية وهي تقلد صوت يوسف وهبي:

- إنما نحن في سجن كبير...

دخلت مي علينا وسألتني:

- ماما بتروحين معي أنا وبابا للزلفي.

- لا يا حبيبتي، ستذهبين لوحدك يومين وتعودين، ستزورين جدتك وجدك وستركبين الحصان وتشاهدين الخرفان الصغيرة.

- هل تسمحين لي أن أحضر واحدًا؟

ردت عواطف وهي تهبط عليها وتحملها من خصرها وتعضها برفق في بطنها، ثم في مختلف مناطق جسمها الصغير:

- ألا يكفينا هذا الخروف الصغير؟! تعالَ يا خروفي الصغير، أريد أن آكلك... هم هم هم.

خرجت عواطف ومي من الغرفة. رنَّ جهاز "الموبايل" مرة واحدة وسكت. كان رقم منزل شذا. طلبت الرقم، ردَّ عليَّ الصوت الرائق: آلو.

صوت محمد عبده وصوته يختلطان في أغنية واحدة! شممت رائحة أعرفها جيدًا، إنها أطراف قلبي تحترق بالعشق. طلبت أن أتحدَّث إلى شذا التي كان صوتها يردد كلمات أغنية: "لا تردِّين

الرسايل ويش أسوّي بالورق، لو تركتيني في ليلة بسمتك عند الرحيل، دمعة العين الكحيلة عذرها الواهي دليل".

قالت شذا:

– هل تمرّين قليلًا؟

– حسنًا، سأحضر قهوتي وأهبط إليكم.

– إذن، القهوة منك والشوكولاتة من عندنا.

– أنا أكره الشوكولاتة.

– خلاص نحضر لك تمرًا أيتها المرأة النجدية.

طلبت إليّ عواطف أن آخذها وأمي في طريقي إلى مكتبة جرير.

(١٢)

في بيتها، طلبت إليَّ شذا أن نجلس في المجلس الخارجي الذي يقع في ركن بعيد في حديقة المنزل لكي تدخِّن بحرِّية، بعيدًا عن والدها الذي يجلس في صالة المنزل ويسمع الأخبار من قناة "العربية".

والد شذا، كما حدثتني عنه، رجل مثقَّف وسياسي قديم، لكنه اليوم تاجر كبير. تتحفَّظ شذا على مرحلة من حياتها عاشها والدها بعيدًا عنهم. كانت تقول إنه كان غائبًا، لكنها بعد وقت طويل قالت لي باختصار: كان أبي معتقلًا.

لم أجرؤ على سؤالها عن السبب، فقد خفت أن يؤلمها سؤالي، لكن وليد أخبرني ببعض التفاصيل عن أسباب اعتقال والده، حيث كان واحدًا ممن آمنوا بالثورة والخطاب القومي اللذين كانا يعمَّان العالم العربي آنذاك. وبعد انقلاب تمَّ إحباطه، قُبض عليه بتهمة التواطؤ، من دون أن يعرف أبناؤه حتى اليوم حجم ذلك التواطؤ.

أمضى الأب سنوات في السجن، وواجه عقوبة الإعدام، ثم تم إسقاط الحكم عنه بعفو ملكي، ونُفي إلى فرنسا، وكان ذلك بعد

مساع جبارة بذلتها قبيلته الكبيرة والمقربة جدًّا من الملك للشفاعة له. وقد وقَّع على تعهد بعدم خوض أي نشاط سياسي بعد ذلك أو نشر تفاصيل تخص نشاطه السابق.

قال وليد:

- يحرص والدي كثيرًا رغم وعيه السياسي على ألا يحدِّثنا عن دوره القديم، ربما يخاف أن يتعلَّق أحد منا بأفكاره التي يدفع صاحبها ثمنًا غاليًا كما دفعه هو. أثناء سجنه، عانى من أمراض مبكرة بالنسبة إلى من هو في مثل سنه. كانت تجربته في السجن على ما يبدو مُرة، حتى إن الحديث عنها يرهقه، وخصوصًا أمام أبنائه، ونحن نحترم رغبته فلا نشير إليها لا من قريب ولا من بعيد.

تتعلّق شذا بوالدها تعلق التلميذ بالملهم المعلم، والحاني الراعي، والظلّ الوارف، والحامي، وهو يعامل بناته كأنهن فراشات ناعمات؛ يدلّلهن، يحترم رغباتهن، يدفعهن لتحقيق استقلالهن مهما كان الثمن، ويدعم بناء شخصيتهن بقوة.

يستجيب لما تطلبه شذا وأخواتها، ويقف بعنف في وجه كل من يعترض حقوقهن ويكدِّر خاطرهن، لهذا تتمتع شذا بثقة في النفس وجاذبية في الحضور شدَّتاني إليها منذ لقائنا الأول. ليس والد شذا نموذجًا شائعًا بين رجالات الرياض. أشعر أنه كان يمثِّل جيلًا نادرًا، وهو شخصية نادرة أيضًا. تعرَّفت إليه عندما صرت أزور شذا في البيت وأسلِّم عليه وعلى أمها وأخوتها. لقد استقبلوني كأنني ابنتهم الثانية. يسود في بيت شذا مناخ لم أعرفه في منزلي؛

غمائم من الحب تتوزع بينهم، وخصوصًا علاقة الحب التي بين والدها ووالدتها، على عكس علاقة والديَّ المتوترة والمتكدرة.

دخلتُ وشذا إلى الخيمة، التفَّت جوانبها بقماش من الصوف الأحمر المقلَّم السميك على مساحة مربَّعة من الدعائم الحديدية. رائحة الصوف القوية تنبعث في المكان بسبب رشِّ المطر الخفيف. رتِّبت الخيمة من الداخل بزينة بدوية جميلة والأنوار تتوزَّع على جوانبها. داخل سرج قديمة وعلى جدار الخيمة خنجر مذهَّب وبندقية صيد قديمة، وفي الركن موقد للنار صُفَّت أباريق الشاي ودلال القهوة القديمة على رفوفه الخشبية، بينما يتدلى على جدار آخر جلد ماعز مدبوغ، وعلى الأرض أرائك ووسائد ملونة بقماش السدر الأحمر المقلَّم بالأسود. تحترق في الموقد أخشاب السمر، وتنعكس ألسنة اللهب البرتقالية بصورة ساحرة على وجه إبريق "الستانلس ستيل" الفضِّي المجاور للَّهب.

يجلس وليد قبالة النار، يتحدَّث في هاتفه المحمول. عندما رآني، نهض ومدَّ يده وصافحني. قال:

- مرحبًا. عذرًا، معي مكالمة.

ثم أكمل حديثه.

تتوسط الخيمة شاشة تلفزيون كبيرة يُعرض عليها فيلم Forrest Gump مع توم هانكس، تبثه قناة mbc ٢.

أشعلت شذا سيجارتها وشربت القهوة، فيما رحت أراقب

شاشة التلفزيون وأتابع أحداث الفيلم.

أنهى وليد مكالمته، ثم حيَّاني وقال:

– هل تعرفين أن مديرتك سارة هاتفتني اليوم؟

قالت شذا:

– انتبه، إنها تأكل الشباب الحلوين، تقرمشهم لحمًا وترميهم عظمًا.

ضحك وليد وقال:

– وماله؟ صحتين.

قالت شذا:

– طيِّب وصِّيها عليّ طالما أنك مبسوط، يمكن أحصل على ترقية.

ضحكت أنا، فنظر إليَّ وقال:

– وأنت يا هند، ألا تريدين ترقية لأوصي بك عند سارة؟

– لا، شكرًا.

شعرت بخشب قلبي يطقطق في نار الغيرة كما كان يفعل خشب الموقد. سألت نفسي إذا ما كان وليد يقصد بالفعل إثارة غيرتي، وحرصت على ألا أردَّ على قلبي وأتجاهل أسئلته.

حوّلت نظري إلى شاشة التلفزيون، تابعت الفيلم ثم حاولت تغيير الموضوع، قلت:

– أنا أحب توم هانكس. البارحة كنت أشاهد له فيلم Terminal.

أشار وليد إلى الشاشة:

– هذا فيلم "فورست غامب"، شاهدته في السينما عندما كنت أدرس في واشنطن. انظري كيف تعرّف والدته الغباء. (ظهرت العبارة على الشاشة: "الغبي هو من يتصرف بغباء").

قالت شذا:

– شاهدت هذا الفيلم مرتين. يبدو أن "فورست غامب" نجح لأنه رجل، والرجل مقبول في أي مجتمع، حتى لو كان معاقًا مثل فورست غامب. أليس هذا صحيحًا يا وليد؟

– قد لا ينطبق هذا الكلام على الفيلم، فالبطل يعيش في مجتمع أميركي، حاولت أمه خوض معركة لتثبت أنّ المعاقين ليسوا بشرًا ناقصين، إنما يختلفون عن الآخرين بقدراتهم، والدليل أنه رغم تخلُّفه العقلي نجح لأنه مُنح فرصة.

قلت:

– ما يحيِّرني هو أنه نجح رغم تأخر مستوى ذكائه، بينما صديقة طفولته في الفيلم، الذكية والحساسة جيني، تخبّطت كثيرًا في بحثها

عن معنى لحياتها؛ فقد تعلّمت في الجامعة وسافرت، والتحقت بمنظمة يسارية للدفاع عن قضايا إنسانية، ثم تعاطت المخدرات، ثم حاولت الإنتحار. هل الأذكياء دائمًا هكذا، يدفعون ثمن كونهم أذكياء، بينما غالبًا ما ينجح الأغبياء؟

قال وليد:

- ليس مهمًا أن يكون الإنسان ذكيًا لينجح. على العكس، قد تساهم شدّة ذكائه وحساسيته في عرقلة حياته. عندما كان فورست غامب يحارب في فيتنام، قال له قائد الكتيبة: لماذا أنت هنا؟ فردَّ عليه: أنا هنا لأفعل ما تأمرني به. دهش قائد الكتيبة، فهو لم يسمع في حياته أجمل من هذه العبارة، وكأن قاعدة الحياة تتلخص في أنَّ قدرتك على إطاعة القوانين تجعل الحياة أسهل، بينما يصعّب الأذكياء الحياة على أنفسهم، فهم يبحثون عن سبل خلّاقة وطرق جديدة للحياة، ومحاولة صنع قوانين جديدة لحياتهم تتناسب مع قدراتهم، تعرّضهم للفشل تارة وللإحباط تارة أخرى، وتطيل طريق نجاحهم. لكن هذا هو الفرق بينهم وبين الأشخاص العاديين.

- جيني، وهي تموت، سألت غامب سؤالًا ربما يفسّر ركضها المستمر في حياتها.

شذا:

- ما هو؟

- سألته عن الخوف، لكنه أجابها بحديث طويل عن الإيمان.

ربما كان يريد القول إن الإيمان يختصر علينا طريقًا طويلًا من الخوف الساكن في أرواحنا، وتهدّئ أسئلة الوجود التي تشعل قلقها في وجداننا منذ الصغر، وتقتضي منا عمرًا طويلًا للإجابة عنها. ربما الخوف هو ما قتل جيني؛ حاولت الهرب منه بالنضال في قضايا إنسانية، والغياب في المخدرات، لكنها ظلت تعاني وهي تائهة ووحيدة.

- الأذكياء لديهم مشكلة عدم التكيُّف مع الآخرين.

- لأنهم الأفضل.

- لا، بل لأنهم مختلفون.

قالت شذا:

- أظن أن نظرية جدّتي منيرة أصدق نظرية في الوجود: "لو تجري يا ولدي جري الوحوش غير رزقك ما تحوش".

قلت:

- أضيفي لقول جدتك منيرة قول عمر بن الخطاب "اللهم ارزقني إيمان العجائز"، لأن الإيمان المستسلم الذي لا يسأل يجعل الحياة محتملة. لكن لو كان هذا الإيمان سهل الحصول، لما سمّي إيمان العجائز.

شعرت بتملل وليد وهو يقول:

- هل تريدون أن نخرج للعشاء؟

- لا، أنا تأخرت. يجب أن أعود.

قالت شذا:

- نتعشَّى ونوصلك إلى البيت. هل تعتقدين أننا كل يوم نتلقَّى دعوة للعشاء في المطعم؟ يالله قومي.

(١٣)

استيقظتُ في الصباح على صوت العصافير التي تجتمع على شجرة التين، تحت غرفتي. كانت الساعة السادسة تقريبًا. ظلت العصافير تغنّي نصف ساعة متواصلة تقريبًا، كأنها تتلو النشيد الصباحي تحيةً للكون، وكان شجو الأصوات "السبرانو" يدخل من بين الزقزقة ويتميَّز عنها بحرفية مدهشة. العصافير تغنّي نصف ساعة من دون لحظة صمت ولا يخطئ عصفور دوره.

نهض جسدي من الفراش خفيفًا كفراشة. تذكرت ذلك الحكيم الصيني الذي قال: "حلمت بأنني فراشة، والآن لم أعد أعرف إذا ما كنت فراشة تحلم بأنها "تشو تسي" أو أنني "تشو تسي" يحلم بأنه فراشة".

أشعر بأنني طفلة تتزحلق على الغيم، وتسقط في ندفه، ثم تطير إلى غيمة أخرى خارج مدار هذا الكون. هبَّت نسائم باردة على يديَّ العاريتين، نبتت على زندي منابت كأنها نمت للتوّ، وخرجت من جلدي، مررت بيدي على زندي، شعرت بأن ريشًا أبيض قد

نما فوق جسدي، ريشٌ ناعمٌ طويلٌ يدفئني ويعدني برحلة تحليق ناجحة. أؤجّل النهوض من الفراش لأحتفظ بتلك العباءة الجديدة من الريش، لا أريدها أن تسقط، لا أريد أن أبدِّلها ببدلة المُحارب المعدنية، والدرع النحاسي، والسيف لأخوض حربي المسلحة في حياة لم أختر منها شيئًا.

وجهُ وليد أول صورة تفتّحت أمامها عينيَّ، مثل برعم وردة جورية يفتح قلبه للحياة وينظر.

تذكّرتُ نظراته، البارحة، حين كانت تلتقي بنظراتي في المطعم، يتأمّلني، ثم يبتسم بمودّة طافحة بالحنان والنور وفرح الحياة.

توقّفتْ سيارة وليد أمام برج الفيصلية الجديد. فتح العسكري الغطاء الأمامي وفتّشه، ثم طلب إليه أن يفتح غطاء الصندوق. منذ حوادث تفجير المساكن والمجمّعات السكنية للأجانب، ومدينة الرياض تلتزم باحتياطات أمنية مشددة. تتحوَّل الرياض إلى ثكنة عسكرية مليئة بالشرطة ونقاط التفتيش، تقطع خراسانات الإسمنت بوابات الدخول في الأماكن المعرَّضة للتهديد، خوفًا من عمليات انتحارية أخرى، مثل ناطحتي السحاب "المملكة" و"الفيصلية". دخلنا المصعد، كان قلبي يدقُّ بشدة، ووليد يقف قربي مباشرة، أكاد أحسُّ بحرارة جسده من تحت ثوبه الأبيض، أكاد أسمع نبض قلبه الأبيض على بعد إنش تقريبًا من عباءتي السوداء. أشبه بلوحة سزيالية، متناقضة الألوان، نقف في مشهد بدائي قادمين من زمن غامض ذاهبين لزمن غير معروف. ضغط

وليد زر الدور الحادي عشر، انطلق صوت أنثوي من سمَّاعة إلكترونية، تحدَّث بالإنجليزية: مرحبًا بكم، أنتم متَّجهون إلى الدور الحادي عشر.

فتح باب المصعد، استقبلنا النادل اللبناني الذي يلبس بدلة سوداء: مرحبًا بالشيخ.

نظرت نحو الطاولات؛ عدد من النساء يتوزَّعن على طاولات المطعم، بعضهنَّ يترك وجهه مكشوفًا وبعضهنَّ الآخر يضع لثامًا من الحرير الأسود. يجلس عدد من الرجال لوحدهم على طاولات أبعد. يندر أن تجد زوجين يجلسان معًا. الحلقات هنا إما نساء أو رجال، والمطعم لا يضع حواجز خشبية بين الطاولات كما في المطاعم الأخرى. قالت شذا:

- المطاعم الفاخرة من فئة سبعة نجوم لا تنطبق عليها قوانين المطاعم الأخرى في الرياض، فلا قواطع خشبية ولا مداهمات من هيئة الأمر بالمعروف تفتِّش عن اللقاءات غير الشرعية بين حبيب وحبيبة أو صديق وصديقة، أو تمنع جلوس النساء لوحدهنَّ من دون محرم.

قلت لها:

- يعني الواحد يجلس مرتاح؟

قال لي وليد:

- من دون شك، جئنا هنا يا هند لتجلسي مرتاحة، وتمضي وقتًا طيبًا!

لمست عبارته الواثقة من نفسها والحنونة قلبي؛ للمرة الأولى يعبأ أحد براحتي، ويدلّني عليها، ويترك لي حرية الاختيار. نظرت إليه بأُمتنان، فابتسم.

سألَنا النادل:

- أين تحبُّون الجلوس، في الشرفة الخارجية أو في الداخل؟

اخترنا الجلوس في الشرفة. الأضواء قوية الإنارة على سور شرفة المطعم المطلّ على مدينة الرياض، والعلو الشاهق يكشف رؤوس البنايات والمتاجر والشوارع والسيارات. الرياض تتزخرف مثل لوحة إلكترونية؛ تتغير ألوان إضاءتها كل وقت، وتدور الفراشات الليلية حول ضوء الأنوار المعلَّقة على شرفة المطعم. اقتربت الفراشة من الضوء، ثار دخان احتراقها. كان قلبي يحترق كفراشة ويستسلم لنار الحب.

مثل طفلة مأخوذة بمشهد تراه حيًّا للمرة الأولى في حياتها، صحتُ:

- انظروا، الفراشة تحترق! كنت أسمع عن حبِّ الفراشات للضوء حتى الهلاك، أقرأ عنه في الروايات وفي الاستعارات الساذجة لتشبيه النساء الضالات بحثًا عن الفرح بالفراشات التي يخدعها الضوء فيحرقها.

قالت شذا، وهي تُجاري فرحي بمشاهدة المشهد:

- أليست غبية هذه الفراشة التي ترى رفيقتها تحترق فلا تهرب

بل تأتي لتحترق بدورها؟!

قال وليد:

- إن انقياد الفراشات للضوء شعور غريزيٌّ، فلا تسخري منها.

سألته:

- هل تحب عملك في المستشفى يا وليد؟

قال:

- رغم ما يشاع عن أن علوم الفيزياء النووية متجهِّمة وثقيلة الظل، إلا أن عملي يوفِّر لي شيئًا من المتعة، لكنني لست من الذين لا يستمتعون سوى بالعمل... أستمتع بأشياء أخرى.

تحمَّست لبداية حديث طويل سيقودني للتعرف على وليد. بدت لي شخصيته المنفتحة مثل حقول تستحم بالشمس، نضرة وسعيدة ومتفائلة.

- مثل ماذا؟

- مثل الحديث مع امرأة مثلك ذكية ومثقفة وجميلة.

قالت شذا:

- أحم، هل أفهم أنني أصبحت غير مرحَّب بي؟

(١٤)

زوجي منصور مغارة هاربة من الشمس، تسبح في العتمة الباردة وتستمدُّ وجودها منها. يقسّم نفسه إلى غرف سرية، تلافيف من الغرف، كل غرفة لا تهتك سرَّ صاحبتها، وكل واحدة تستأثر برحلة كشف خاصة لوحدها وتعطي نتائج مخادعة، فإذا ظننت أنك وضعت يدك على حقيقتها أوحت بالعكس، وإن ظلّلتك أوحت بأنك قد وصلت إليها لتطمئنك، الخداع هو وجه طمأنينتها الذي يحفظ سرها. غموضها هو ستارها المخادع، كأنها جزء من دروسه العسكرية. عرفت حبه في أول غرف مغارته الباردة والمظلمة، لكنها كانت أكثر غرفة تطل على الضوء. ظننت أن مغارته تصلح كمخبأ سري، نجاة لروحين، وحياة تتسع لاثنين. فكرت بعقلي كما نصحتني أمي: العقل يا بنتي زينة. تساقط ريش الجنون عن روحي يومًا بعد يوم، ريشة ريشة، فصرت كطير منتوف الريش.

لم أعد فتاة الأمس بأحلامها الواسعة كالمدى. صرت زوجة تبدأ حياتها الجديدة مستمعة إلى نصائح أمها.

قالت توصيني في ليلة عرسي:

– المرأة العاقلة ليس لها كل يوم رجل، رجلك قدرك، خيرك وشرُّك، سعدك وحزنك... وأنت وما رزقك الله، إن أنعم عليك برجل حنون فنعمة تستحق الحمد، وإن ابتلاك برجل حرون فبلاء يستوجب الصبر.

أظهر منصور جذلًا وفرحًا بامتلاكي. في الأيام الأولى لزواجنا قررت في نفسي ألا أخذل فرحه، وأن أتعالى فوق كرهي للعتمة والرطوبة، وأن أقبل أن أكون ملكة في مغارة معتمة، لكنّه فرَّ مني بعد الأشهر الأولى اللازمة للحصول على مستحقاته الزوجية وضمان الحمل. ثم هرب. لم أعد أجده كما كان.

غابت رقة روحه. هربت في علاقة سرية أخرى. طرقتُ بيدي عليها؛ لا يسمعني ولا يخرج. ضاع مني في متاهاته. أسمع صوته أحيانًا، ألمح وجهه مرة، لكنني لا أصل إليه ولا أستطيع مشاركته غرفته.

رضخت لإلحاح أمي بعد انكشاف سري مع الرجل الذي أحببته.

قالت لي:

– لا تحلمي بأن تتزوجي رجلًا كنت تعبثين بمكالمتك الليلية معه.

هدَّدتني بعدم الخروج من البيت إلا إلى الجامعة، فكان عليَّ أن

أفكر بمنصور ابن أخيها، رجل نعرفه، منا وفينا، أفضل من رجل لا نعرفه. قالت:

– ستعيشين في سجن بعد اليوم، لا هاتف ولا صديقات.

هدَّدتني بأن تفضحني عند أبي بقصة الرجل الذي أحب:

– لن يتزوجك، تعرفين هذا، ليسوا من العائلات التي ترقى لمصاهرتنا. ولو فعلت لأراق أعمامك دمك.

لو عرف أبي، لن يسامحني على اللهو غير المغفور له مع الرجل الذي أحب، وعندما يصل الأمر إلى جملة "ليسوا من العائلات التي ترقى لمصاهرتنا" سيصبح الأمر أكثر تعقيدًا. عرفت أن ما بقي في بيت أهلي هو هزيمة عسكرية ماحقة. يبدو أنّ أبي الضعيف قد سلَّم أمي أسلحته العسكرية الصارمة فأصبحت هي عسكري البيت.

تزويجي بمنصور كان الأمر الوحيد الذي اتفق عليه أبي مع أمي. اتفقا للمرة الأولى في تاريخ علاقتهما. ما يعني أن نوافذ السماء أغلقت في وجهي ولم يبقَ لي سوى الدفن في بئر لا قرار لها. أدركتُ أن أمي انتصرت عليّ، وأن الحرب معها لن تهدأ أبدًا، وأن لا بد لي من البحث عن ساحة حرية، أرحم ولو قليلًا، أو أسهل ولو قليلًا، وأقل صراخًا وعنادًا ولو قليلًا، من حرب أمي الشرسة.

منصور شاب وسيم، تخرَّج للتو من الكلية العسكرية برتبة

ملازم، ويصلح لحياة جديدة. حتى موضي التي كفَّت عن جنونها المراهق بعد موقف والدتها الأخير، وأصبحت فتاة عاقلة تؤمن بالزواج المبكر، شجعتني قائلة:

– أنت تقولين إنك لا تحبينه علشان العين، ياختي حدّ يطول عمر الشريف ويقول لا؟!

موضي تقول لي هذا الكلام لتعزّيني بخسارة الرجل الذي أحب، والذي لن نأتي على ذكره أبدًا، خصوصًا عندما عرفنا أن منصور يجيد حيل التنصت على هاتفي، ويترك بعض عباراتي التي أستخدمها مع صديقاتي مكتوبة على الطاولة. وعندما أسأله عن معنى ذلك يقول: أبدًا، مجرَّد صدفة، لقد خطرت على بالي هذه العبارة فكتبتها.

لدى منصور خططه التي لا يمكن لأيِّ أحد أن يكتشفها؛ منصور لا يهاجم ضحيته، لكنه يحرق أعصابها حتى تنهار، وتعترف. يجيد لعبة الدوران حول الضحية وإرهاقها حتى تطلب إليه التوقف، حتى تخبط رأسها بالحائط وتعترف، ثم تطلب إنزال أشدّ العقوبات بحقها وتصيح: أنا المجرم، أنا المجرم أريحوني، أراحكم الله، عاقبوني، اعدموني إن أردتم، لكن لا تفعلوا بي هذا!

لم يحاول منصور أبدًا أن يعاملني كامرأة لها كيان وروح وحقوق مثل باقي البشر. كان دائمًا يستعمل معي الوصف "أنتنَّ الحريم". إذا غضبت قال: أنتنَّ الحريم عقولكن صغيرة.

وإذا طرحت عليه سؤالًا عن عالمه الذي يثير فضولي أحيانًا، قال: إنها أمور لا تخصُّ الحريم.

وعندما أحلم أمامه بصوت مرتفع بأنني أتمنى لو نقضي إجازة في جزيرة خضراء بعيدة تطلُّ على المحيط، يقول: أنتنَّ الحريم طلباتكن سخيفة.

لم أعد أنظر لنفسي على أنني شخص واحد، بل ذرَّة في مدار كونيٍّ أسود مزدحم بالنساء، يدرن ويدرْن حتى يدخِّنَّ. قلت له مرّة:

– هل يمكن أن تحاكيني على أنني امرأة، زوجتك التي تعرفها، ولست عالمًا من الحريم؟

يردُّ عليَّ بهدوء وهو يدخن سيجارته، وعلى شفتيه علامة نصر سعيدة بأنه نجح في إنهاكي:

– لماذا؟ بمَ تزيدين عنهن؟!

بسببه، صار أكثر ما يضجرني في هذا العالم هو أنني امرأة.

بسببه، تأكدت أن الرجال في عالمنا يملكون عالمًا واسعًا يلهون فيه ويتخفَّون من مسؤوليات الأطفال والحياة، بينما تحاط النساء بالتقاليد الضيقة، وقلق الأمهات عليهن ليس بسبب الخوف عليهن، بل خوفًا من حوادث الشرف المعيبة.

بمراقبة منصور اكتشفت أن الحياة بالنسبة للرجال مكان واسع

يتأرجحون فيه كيفما يشاؤون... لهم الشوارع يقودون فيها سيارتهم بجنون، ولهم المقاهي، والشطآن البحرية، والشقق الخاصة للهوِهم غير البريء. قالت لي شذا مرّة:

– إنَّ حياةَ الرجال هنا كرسي كبير مفصَّل على مقاسهم، بينما تحتار النساء بين عادتين لا ثالث لهما، الجلوس في البيت أو الخروج إلى السوق.

عندما كنت صغيرة، كنت أشتاق للمدرسة لأنها مكان لَهْوي الوحيد. الرجال يفهمون أن البيوت خلقت للنساء، قضبانها حدودهن. ومع الوقت تألف النساء هذه القضبان وتحبّها، تظن أنها المكان الآمن الوحيد لهنَّ في هذا العالم، وما خارجه وحوش قد تنقضُّ عليهن لو خرجن، والرجال ذئاب مستعرة. لهذا تشيخ النساء في عمر مبكر في بلادي، ويُصَبن بالكآبة، ويُقلقهن المرض، مرض الأطفال وفقد الأزواج.

تقدمهنَّ في العمر ما هو إلا كناية عن عطبهن وانتهاء عمر إغوائهن الافتراضي. أدوارهن محصورة، وقيمتهن تتدنى لأنهن يعشن عالة طوال حياتهن. عالة على آبائهن قبل الزواج، ثم عالة على أزواجهن، ثم على أبنائهن حين يكبرن، ولهذا يسهل على معيليهن قيادتهن.

لا شيء يشغل عقولنا سوى الفراغ، فتترهَّل مبكرًا، ومن تفكِّرْ باستخدامها كثيرًا تُجنَّ بسبب دورانها في قفص من فراغ.

فيروس الأسئلة الذي يرافقني منذ صغري يطوح بي أحيانًا في مجاهل من الشك والحيرة، ثم الغضب على واقع غير عادل؛ الرجال يجلسون إلى طاولة الحياة ويأكلون كعكتها كاملة من دون أن يشعروا بوخزة ضمير واحدة، فيما تنظر إليهم النساء جائعات. يتمنطقون بحجة التقاليد التي كُتبت منذ بدء الخليقة، وليس هم من وضعها. هم حراسها الأشداء، بل إنهم على مرِّ السنين استطاعوا تجنيد نساء أصبحن أشدَّ منهم في حراستها. أمي واحدة من هؤلاء الحراس المخلصين، تقول لي دائمًا عندما أسألها:

– بمَ يختلف عني فهد أو إبراهيم؟

– هؤلاء رجال، وأنت امرأة. هل تفهمين؟

لكنّني لا أفهم ماذا يعني "امرأة".

أسألها:

– هل يعني هذا أنَّ المرأة بلا روح.

تردُّ:

– هكذا هو الحال، ستقبلينه كما قبلناه قبلك، شئت أو أبيت.

أجد نفسي الطرف الأذكى في العلاقة بيني وبين منصور، لكنّه الطرف الذي يملك كل شيء، وأنا لا شيء تقريبًا، بل أبدو كأنني واحدة من ممتلكاته التي انتقلت إليه بعد أن تنازل له أبي عنها.

هذه الأسئلة تحيِّرني، تجعلني أشعر أحيانًا كأنني كائن خرافي

غريب لا ينتمي إلى المكان الذي هو فيه، كأنني نبتة شوكية خرجت في أرض بلا جذور.

لم أشعر يومًا بأنني أنتمي لعالم الحريم الذي ينعتني منصور بمواطنته. صارت لدي رغبة عارمة في الكتابة، أكثر مما مضى. كلما كتبت أسئلتي على الورق، أخفّف من قهرها على عقلي. الكتابة تفعل بي فعل السحر، تمتصُّ الأفكار المضطربة من رأسي فيصبح بعدها رأسي فارغًا وهادئًا. لكنني لم أقوَ يومًا على الصراخ في وجه منصور: نعم، أزيد عن النساء اللاتي تعرفهن، بروح تتمرّد على عالمك الضيِّق المحدود برغباته الأرضية، روح يوجعها ارتطام محاولاتها التي لم تكفَّ يومًا عن البدء من جديد، مهما صدمها شبَّاك بئرك الجافة!

كلما حاولت الخروج منها أجده يجلس فوقها، يوهمني بأن حدود السماء ما هي إلا بقدر فوهة البئر التي أعيش فيها، لا يسمح لي بالنظر لما فوقها، يظن أنني مثل كل الحريم، سأصدق أن السماء بحجم فوهة البئر.

العوالم التي تغذَّيت بها من الكتب والأفلام والخيال الواسع علَّمتني أن هناك دائمًا سماء أكبر تقابلها لا شك أرض موازية، فيها بشر مختلفون ولهم مهمات متعددة غير حبس الأرواح الحرة. بي توق عارم للنظر إلى هذه السماوات والتعرف إلى الأرض البعيدة بحقولها، وبساتينها، وفاكهتها، وناسها. أتوق لحوار واسع حر عريض مع هؤلاء الناس المختلفين. أناس يتحدثون بعقولهم لا

بعواطفهم المجروحة، كما تفعل حريم مملكة منصور ونساؤه اللاتي شُغلن بالعناية بالأطفال وبإعداد طاولات الأكل العامرة وترتيب تفاصيل الثياب الليلية المغرية من أجل اصطياد رَجلهن وحبسه في فراشهن. يرعبهم رجلهن ويهجرهن. لديهن دائمًا القدرة على تنفيذ كل الوصفات الجاهزة والقديمة، لكبت هذا الرعب والتغلب عليه، لكنهن لا ينجحن أبدًا. حياتهنَّ مع الوقت تتحول إلى كوابيس ليلية، وتظل أرواحهنَّ معذّبة أبدًا بالخوف من الهجر، مسجونات في خزانات ثيابهن، وقدور مطابخهن، تدور فيها أرواحهن، وتدور حتى تشيخ بالكآبة والوهن، ويصبح بكاؤهن على المخدات عادة ليلية لا يعبأ بها أحد.

أنظر كل يوم إلى مسدسه الذي يعلِّقه على خصره وهو عائد من عمله. يدفعني جحيم رغباتي وتوقها العارم إلى الفرار من هذه البئر إلى سحب هذا المسدس من خصره وإطلاق الرصاص عليه، فأفكر بأنني أضعف من رؤية دم يسيل، حتى لو كان دم سجَّاني.

(١٥)

في الشهر الرابع على زواجي هربت من بيته، حملت ثيابي معي، على أمل ألا أعود إليه مرة أخرى. حملت أول ما حملت أوراقي ودفاتري التي ملأتها بيوميات عذابي السري.

فبعد زواجي، افتضح أمر مغارتي السرِّية الآمنة، انكشف أمر شيفرتي السرِّية، فحارسي هذه المرة ليس أمي التي لا تعرف القراءة، بل منصور الذي يجيدها. أصبح من السهل التسلل إلى كهفي السري، صرت كلما دخلت إليه أو تركته وعدت إليه وجدت آثار اقتحام آدمية، فعرفت أن المغارة لم تعد آمنة كما كانت. أصبح من الضروري أن أغيِّر مكاني وأعود إلى حيث كنت، لأن هذه المغارة كانت شرط حياتي، وقد خسرتها اليوم مع منصور.

أمام أهلي، وضع منصور كل ثقل خلافاتي معه في كفة واحدة. نقل خلافه معي إلى ساحة حرب غير ما هي عليه، برّر كل خراب حياتنا وترهُّل علاقتنا بسبب واحد فقط لا ثاني له.

قال لأخي إبراهيم وأمي أن ما أنشره في الصحف بين الحين

والآخر من كتابات، وأضع عليه اسمي الصريح، تجعل زملاءه يتندرون عليه في مجالس الرجال.

قال لإبراهيم في مجلس الصلح الذي عُقد لأجلنا:

- نحن في مجتمع محافظ يا إبراهيم، وخصوصًا مجتمعنا نحن العسكريين، أنت تعرف، لا أحد منا يعرف اسم زوجة الآخر أو حريمه. لدي زملاء في العمل جاؤوا من بيئات مختلفة، بعضهم من البادية، وبعضهم من المطاوعة، وهؤلاء يعتبرون معرفة اسم زوجتك عيبًا فيتهكمون عليك بطرفة ينشرونها بينهم، تقلل من شأنك، ويتندرون بها عليك وراء ظهرك. مراتبنا العسكرية المختلفة تجعلنا طبقات مختلفة؛ يجب ألا يجرؤ عليك أحد أقل منك رتبة بسبب معرفته لاسم زوجتك أو أمك، يتندر به عليك. هل تصدّق يا إبراهيم، هل تصدّقين يا خالتي: دخلت مرة، فسمعت زميلًا لي، أقل مني رتبة، يقول: جاء زوج هند! ثم ضحك بقية الزملاء.

سبح إبراهيم في سعادة لا تضاهيها سعادة، وهو يرى أحدًا غيره أقوى منه يقلّبني على نار الشواء ويغرس السكين في لحمي ويسلخ جلدي أمامه.

قلت له:

- ومن قال لك يا منصور إنك تحتاج إلى مرافعة حامية لتحصل على تأييد إبراهيم لإعادتي إلى السجن؟! هوّن عليك، فطلبك حاضر وأمرك مجاب.

ما كدت أنهي قولي حتى التفت إليه إبراهيم متجاهلًا تهكُّمي، وهو يوجِّه الكلام إليَّ:

– يا هند، إن لم يكن زوجك راضيًا عن كتابتك فليس لك حقٌّ شرعًا بأن تنشريها.

سعد الاثنان بهذا الاتفاق. لوَّحا لي ببعض التعويضات، منها ما كان موجودًا، ومنها ما هو جديد. لوَّحا مثلًا بأنَّ لي الحقَّ بمواصلة دراستي الجامعية، وكأن هذا الحق الذي كنت في الأصل أمارسه لا يزال محل تصويت ومشاورة، لكنهم أرادوا تذكيري بأنه ليس بالضرورة حقاً مأمونًا بل هو مشروط بالطاعة. كما تعهَّد منصور بوضع سائق خاص لي على أن تكون زوجته معه، ليقوما أثناء غيابه وأسفاره الكثيرة بتوصيلي من الجامعة وإليها، لكي لا أختلي بالسائق، فهو رجل غريب ولا يصلح أن أختلي به في الشوارع.

عدت مرة أخرى من حيث بدأت: النشر باسم مستعار، لا ضمان لي في جزيرة الرمل هذه، كلما بنيت فيها قصرًا هدمته الريح، وكلما كتبت فوق سطحها شيئًا طمرته الرمال ومسحت أثري.

غبت عن الكتابة حتى رتَّبت سجني من جديد. رحت أفتش عن ركن آمن يسمح لي بالكتابة، وجدت الكمبيوتر، اشتريت بطاقة دخول إلى الشبكة الإلكترونية، وفتحت بريدًا إلكترونيًا أنقش كل ما أكتب في قلبه ثم أغلقه. لم يعد لي أثر، كل شيء يختفي بمجرد أن أخرج من الصفحة، تمامًا مثلما يختفي المارد في

إبريق علاء الدين، مثل دخان يذوب في الهواء. طار قلبي فرحًا! ها أنا أعثر على شيفرة جديدة لا يفكها أحد، حتى منصور الذي يجيد القراءة، لن يتمكّن بسحر معرفته القراءة من هتك أسرار سحري الجديد.

الكتابة انتصرت لي مرة أخرى على منصور، بعد أمي. عرفت اليوم أنني أقوى منهما، وفي كل مرة أنا من يكسب معركة حرفي.

هذه الصنعة التي في يدي هي في أمان من منصور، لا أحد يستطيع سرقتها مني، حتى وهم يتعاضدون اليوم على محاصرة اسمي الذي أشترك معهم فيه، لكنهم لا يعتبرونه حقاً لي، كما هو حقٌّ لهم، بل سلسلة تربطني بهم يجب عليَّ ألا أمضي بها بعيدًا.

فسلسلة نسبي الطويلة، تشير إليهم، وتحرجهم، وتكدِّر حياتهم أن يعرف أحد بأمرها، واسمي في الصحف ليس إشارة إلى اسم كاتبة تميَّزت في سلسلة عائلتها الطويلة بقدرتها على الإبداع، لكنه اسم يفضح هوية واحدة من حريمهم خرجت من خدرها، وفضحت أمرها وشخصيتها. ملكيتها تعود إلى حرم العائلة، حيث لا يحبون ولا يرحِّبون بأن تكشف الحريم عن شخصها. فكل اسم يفتضح أمره يجرُّ عائلة عريضة معه، ويجعلها عرضة لفضول المازحين والمتندرين والمتطفلين ليسألهم بوقاحة: فلانة اللي تكتب في الجرايد، من عائلتك؟

لا يستطيع شعور الخجل أن يمنح الرجل المسؤول فرصة لمعرفة ما إذا ما كان هذا السؤال إطراء أم معابة.

إبراهيم أخي يقول: لا، ليس لي قرابة بها، إنها عائلة تشابهنا في الاسم فقط، بعد أن يحمرَّ وجهه ويعرق، ويعود إلى البيت ولديه رغبة عارمة في رشّي بماء النار لأختفي من حياته.

أما منصور، فقد كان يقول في بداية زواجنا، قبل أن يجرّب المواجهات الساخنة مع زملائه: إنها مجرد قريبة لي، لكن من بعيد.

كان يريد أن يقيس ردة فعل السائل أولًا. كان يصف تلك الردود بأنها دائمًا لئيمة ووقحة، كأن رجلًا ما يتفرَّس حرمتك أمامك من دون خجل، لمجرد أنك أنت من رضي بأن تكون مكشوفة، فليس عليه حرج بعد ذلك من تقليبها بعينيه أمامك.

تمامًا مثلما سمح لي منصور في بداية زواجنا بكشف غطاء وجهي، بأن أضع المنديل الأسود على شعري فقط، لكنه رأى الرجال الذين يمرون بنا أو يجاورون سيارتنا يحلقون بي من دون خجل، وعيونهم تتلصَّص على كل حركة لنا، فصار يتشدد معي ويأمرني بعدم كشف وجهي خارج المنزل، خصوصًا بعد تلك المشادة التي نشبت بينه وبين أحد الشبان الذي وقفت سيارته أمام إشارة المرور الحمراء بجانبنا. أدار الرجل كامل جسمه تجاهنا، وأخذ يحلق بجسارة. قال له منصور وهو غاضب:

– وش رأيك تتفضل معانا أحسن؟

قال له الرجل ساخرًا:

– إذا كنت لا تريدنا أن ننظر لمرتك غطّها يا أخي!

(١٦)

عدت للكتابة مرة أخرى، باسم "هند عثمان"، اسمي واسم والدي من دون وضع اسم العائلة. عاد منصور يفتِّش، لم يجد لي أوراقًا تفضحني، ولا أسرارًا يتتبَّعها، يفتح الكمبيوتر بعد أن أغلقه، يفتِّش في الملفات كلها، لا يجد شيئًا يدل على كتاباتي. أين تخفي هذه المرأة أسرارها؟ يقول لنفسه: أنا متأكد من أن "هند عثمان" هي هند، هذا اسمها.

شكَّ في أنني خرقت الاتفاق عندما رأى هذا الاسم مرة في مجلة "المجلة" السعودية التي اعتدت على أن أرسل لها مقالاتي بالبريد.

أحيانًا يسخر من بعض جملي علانية، ويلمِّح لي بانكشاف لعبتي، لكنه لا يقوى على مواجهتي صراحة، وأنا لا أقوى على الإقرار صراحة، ظلَّ يلعب معي بهدوء، واستمتاع، لعبة القط والفأر، يوتِّرني، ثم يطمئنني، ثم يتجاهلني وكأن الأمر لم يعد يعنيه، حتى قاربت على الانهيار والاعتراف، لكنني فضَّلت أن

أكفَّ عن الكتابة وقتًا وأعيد ترتيب أوراقي لإنقاذ رقبة قلمي من مقصلة منصور وإبراهيم وهيلة. اهتديت إلى أن اسمًا آخر غير "هند عثمان" قد يبعد شكوكه عني، وأن الكتابة في جريدة إماراتية قد لا تصل إليه، أكثر امانًا لي من الصحف التي تصله في مكتبه والتي يحرص على قراءتها، وعلى تتبُّع مقالات الكاتبات على وجه الخصوص. إسمي الجديد "زرقاء اليمامة" حظي بتعليقات البعض في المنتديات الخليجية، صار محطَّ تعليق بعض القرّاء الذين أعثر على تعليقاتهم تحت مقالاتي يكتبون عن زرقاء اليمامة وما تكتبه وما تقصده، ويظنون أنها من الكاتبات المميزات بجرأتهن وشجاعتهن. أقرأهم ولا أقوى على التعليق بأنني لست كذلك.

"هذه المرأة، هي أنا!". لكنني لست جريئة ولا شجاعة، فأصمت، لأن لا أحد يصدِّق "زرقاء اليمامة".

أحلم دائمًا في نومي بأنني ألهث للَّحاق بمركبة، ومرة وراء باص، أو بأن طائرة تقلع قبل صعودي إليها، أو بسيارة مثل سيارته. وفي كل مرة أصل وأصعد، أكتشف أنني في محل آخر مع منصور، وبصحبتنا نساء مجهولات مقنعات، أو حاسرات الرأس، لكن وجوههن غريبة. مرة وجدت نفسي مع منصور، ومعنا هوزان، إحدى زميلاتي في الجامعة. كان غارقًا معها في حوار حميم، وكلما حاولت قطع حديثه معها تجاهلني والتفتَ إليها. رميته بقارورة عسل فارغة واستيقظت.

كانت حياتي مع منصور قارورة عسل تحولت منذ الشهر الأول

لزواجنا إلى قارورة فارغة من كل شيء، وممتلئة بلا شيء.

وجدت نفسي معه مجرد قزم صغير أمام عملاق كبير يشتعل بالغضب، لا أملك إلا أن أعضَّ قدم العملاق الذي يسدُّ عليَّ الحياة ويتحكَّم بمصيري، فالعملاق هو من يرسم لي خارطة حياتي.

يعتقد منصور أنَّ الرجل لا يجب عليه أن يتورط في علاقات عميقة مع الحريم، فالنساء في عرفه قد خلقن للمتعة، وليس للحب، لأنهن بطبعهن ثرثارات لا يمكن أن يستودعهن الرجل الحر أسراره، فهن لا يقاومن شهوة فضح الأسرار مع الأخريات، كما أن كثرة مخالطتهن تصيب صاحبها بالضعف والرخاوة. لذا فإن الفاشل من الرجال يعايَر بأنه "تربية نساء"، وعلى الرجل بالتالي أن يجعل حدوده مع النساء ضيقة، وحياته معهن هامشية. على النساء أن يبقين في الخلف، لذا فقد بُنيت مجالس النساء في خلفية البيت، وأبواب النساء في الجهة الخلفية للسور، وغرف النساء في خلفية الغرف.

عندما كبرت المدن وكثرت نقود الرجال، وزادت مشاغلهم، ولم يعودوا متفرغين لأخذ النساء معهم في مشاويرهم اليومية، قرروا أن يجلسوهن في المقاعد الخلفية للسيارة، وراء السائق، محجوبات عن كل شيء تمامًا.

كل هذا العزل والحجب للمرأة يبرره منصور بشيء واحد، يحفظه عن ظهر قلب، هو أن المرأة هي حبائل الشيطان، هي الفتنة والسحر، تفتن الرجل بسحرها، فيتحول في يدها إن استجاب

واستسلم لغوايتها إلى أضحوكة بين الرجال.

رغم أسطورة الفتنة التي رسمها عن النساء، لم أنجح في فتنة منصور، ولم أسحره، ولم يستسلم لغوايتي، فالمرأة مع النقيب منصور اليوم تفقد سحرها وبهجة الرغبة المثيرة للصياد إذا ما تحولت إلى زوجة شرعية. النظر إلى وجهها كل صباح يجعل منها فريسة ميتة لا تحرِّضه على المطاردة.

عاد منصور مرة من مهمة يسمِّيها غالبًا "مهمة عسكرية سرية". حملت ثيابه المتَّسخة إلى الغسالة، شممت رائحة نساء غامضات تفوح منها، فهمت أن النساء الفاتنات لديه هن الغامضات البعيدات، هن من يثرن فيه شهية لا تعرفها غرفة نوم زوجته الشرعية. وكلما زادت مهامه السرية زادت شكوكه بي، وأجهزة التنصت عليَّ. أسمعه يحقق مع الخادمة عن أوقات خروجي ودخولي، يسأل السائق عن البيوت التي أزورها، ورغم كل التقارير التي يجمعها، والعبارات التي يكتبها على أوراقي الجامعية، ظل شكه بي يستعر، حتى فاجأني يومًا وهو يدخل من الخارج متسحِّبًا مثل لصٍّ، وأنا ممدَّدة على الكنبة أتحدث مع أختي عواطف. وضع المسدس على رأسي وسألني:

– مع من تتحدثين؟!

سقطت سماعة الهاتف من يدي، والرعب يملأ قلبي. ركضت إلى غرفتي أبكي، بينما راحت عواطف تصيح على الطرف الآخر: هند! ما بك؟!

رفع السمَّاعة، سمع صوتها، ثم أقفل.

ذهبت إلى بيت أهلي وأنا حامل بطفلتي مي. قالت عموشة تطمئن أمي:

- دعيها، هذا الوحم اللعين يجعل النساء يكرهن رجالهن.

تركتني أمي في مهلة طويلة، حتى ينتهي الوحم وأعود إلى زوجي، لكنني رفضت العودة، ورفض منصور أن يطلِّقني قائلًا:

- ستظلين طوال عمرك معلَّقة، ولن تحرزي شيئًا بعنادك، ستظلِّين في حوزتي، أينما ذهبت سيكون لجامك في يدي ولن أتركه أبدًا، لن أطلَّقك.

تفهم عموشة لوعتي أكثر ممَّا تفهمها أمي، فهي تقصُّ لي قصص النساء اللواتي خرجن من بيوتهن لأن أزواجهن صعاب العشرة، لكن أمي تردُّ عليها بالقول:

- لو كل واحدة تركت بيتها لهذا السبب لما بقيت زوجة في بيتها.

تعوَّدت أمي على لجم نفوري، لكن روحي فرَّت من حصارها وتمرَّدت ما أمكنها ذلك.

عملي الطويل في المستشفى هيَّأ لي وقتًا أطول بعيدًا عن حصارها، ونقودي التي توفرها لي الوظيفة حرَّرتني من سيطرتها عليَّ، وجعلت حاجتي لها أقلَّ. رضينا أنا وهي مؤقتًا بالمسافة

المنقطعة والموصولة في الوقت ذاته، ووصلنا إلى حرب باردة مستترة.

حاجتي لم تتعدَّ بعد عملًا وغرفة النوم، وسوقًا، لكنها تحرِّض أخي إبراهيم ما استطاعت على أن يطلق عليَّ كلابه، مختبئة خلفه ومتظاهرة بالبراءة من فعلته، مبرِّرة إياها بأنها حقٌّ رجولي يمارسه الرجل عادة على نساء بيته، من باب الشيم والغيرة على المحارم، ومن لا يفعل ذلك فليس برجل.

قلت لعموشة:

- أنظري يا عموشة، هذا الكلام في الجريدة، كتبته أنا وهذا اسمي.

قالت لي عموشة بحنان:

- فديتك يا هند، هل تقرأينه لي؟

قرأت ما كتبته بصوت مرتفع. كانت عواطف تسمعني وتفهم، لكن عموشة تجد صعوبة في فهم معاني الكلمات رغمًا من محاولتي شرحها بين الجملة والجملة، لكنها كانت سعيدة بي وفخورة. أرى لمعة عينيها فلا أدري هل هي لمعة وسط سواد وجهها، أم أنها تتذكر شيئًا وتبكي. قالت لي عندما انتهيت:

- إيه، يا هند، يا طفلة الأمس! كبرت كثيرًا!

قالت عواطف:

- الله! يا هند كيف تكتبين مثل هذا الكلام؟ إنه كلام جميل!

- لكن هذا ليس رأي إبراهيم.

- تجاهليه، اكتبي بأسماء مستعارة متنوعة، تارة باسم همسة بحر، وتارة باسم نفلة الصحراء وغيرهما.

- وهل مكتوب عليَّ يا عواطف أن أتقن دائمًا لعبة التخفّي؟! هنا في البيت قناع وفي المستشفى قناع، وفي الزيارات الاجتماعية قناع، وحتى حين أكتب يجب أن ألبس القناع. الكتابة يا عواطف فعل مضادّ للأقنعة بل أنّه فعل التخفّف منها أخاف من كثرة لبسي للأقنعة أن أضيع وجهي الحقيقي.

- إذن. كلّمي فهد في كندا، قولي له إننا نحتاجه اليوم ليوقف إبراهيم عند حدِّه ويأمره بعدم التدخُّل في أمورنا، فهو أخونا الكبير.

لكنني لم أفعل.

(١٧)

أخي الكبير فهد هو الولد المدلَّل عند أمي، أطلقنا عليه ذات يوم لقب "يوسف" من شدة غيرتنا منه لأن أمي تحبه كثيرًا. فأمي ليس من عادتها الحب، لذا فإن حبها ليوسف بدا مثيرًا للانتباه. لكن طاقتها المحدودة على الحب جعلتها لا تحب أحدًا غيره، لأنه ابنها البكر وفرحتها الأولى والرضيع الذي كان ضعيفًا والطفل الذي لا يعاندها، ولا يكسر كلمتها، كما اعتدنا أن نفعل نحن البنات! تمتّع فهد بأشياء لم يتمتّع بها أحد منا، لكنه رغم هذا نشأ رقيق القلب مثل والدي، مسالمًا لا يحب خوض المعارك.

ظنّت أمي أنّ فهد هو رجلها الذي ستحارب به وتفرض سلطتها من خلاله على البيت، فكانت تحرِّضه علينا. كانت تعامله على أنه رجل البيت، لا تكلّفه بمسؤوليات البيت الصغيرة كشراء الخبز مثلًا، فنحن اللواتي نقوم بها عادة. أما هو، فانتظرتْ منه ما هو أكبر وأعظم، كأن يصدر الأوامر، ويشتم، ويضرب... لكن فهد خذل أمي عندما لم ينشر أجنحته على بيتها مثل صقر، ينهش الطرائد، بل طار حالما تحسَّس أجنحته، ليتحرّر من حبّها، لأن

شخصية مثل شخصية أمي حين تحب تخنق من تحب.

كانت تريده على صورة لم تتفق مع طبائعه، أرادته أن يشكّ على الدوام في أخواته البنات، أن يفتش في أغراضهن، أن يتبعهن في الطريق إلى المدرسة، أن يطردهن من الحارة حين يراهن يلعبن مع الصبية، أن يشدَّهن من شعورهن ويعيدهن إلى البيت باكيات... لكنه لم يفعل.

لم يكن يستطيع فعل ما أرادت؛ طبيعته تشبه طبيعة أبيه ولا تشبه إخوتها الصارمين الذين شدُّوا شعرها ومنعوها من القراءة فظلّت تخافهم وتهابهم حتى كبرت. فهد لا ترعبه رؤية أخواته يلعبن في الشارع. بل إنه في مرة أدرك أن فريقه من الصبية ناقص العدد، فاستعان بي ليكمله. كان يشجعني على التغلب على رفاقه في الورق، ويصفّق لي حين أفوز، بل ويحترم حقّي في الكسب أيضًا، ويسمح لي بالاحتفاظ بما كسبت. وعندما كبرنا وصار اللعب في الشارع ممنوعًا عليَّ، صار يشتري لي الكتب التي أطلبها منه. كان طيرًا أليفًا وليس جارحًا، يعشق الحرية ويحب أن يعيشها الآخرون مثلما يفعل.

فهد هو الطير الذي فاز بجبنة الحب الوحيدة في فم أمي ثم طار.

أحبَّ فهد كتابة الشعر العامي مثل رفاقه المراهقين. أحبَّ أيضًا قراءة الكتب البوليسية ومشاهدة الأفلام الأميركية، كما شغف طويلًا وكثيرًا بلعب كرة القدم وتمنّى لو يصبح يومًا لاعب كرة قدم شهيرًا، لكن أمي التي تخفي فانيلاته عندما تغضب منه قالت

له إنه لو فكّر في أن يصبح لاعب كرة، عليه ألا يدخل إليها أبدًا، وإن قلبها سيلعنه حتى يوم الدين.

احتفظ دائمًا بدفتر لكتابة يومياته كل ليلة قبل أن ينام. كان دفتره نافذتي للحياة التي لم أعشها، فكنت أتسلل كل ليلة بعد أن ينام، وأقرأ ما كتبه. أحببت فهد أكثر من إخوتي وأخواتي جميعًا لأن دفتره جعلني أعرفه جيدًا وأحبّ أفكاره وحياته البسيطة التي تنبض بالرّقة.

ترك المنزل بعد أن تخرَّج من الثانوية. كان هذا الخروج هو أول هدف وضعه بعد ليلة ضربه الشهيرة، وقد تمكن منه الآن. أخبرَني أن عمله كمتدرِّب في شركة البترول الأميركية يوفِّر له سكنًا داخليًا بعيدًا عنّا. دخل غرفتي ليدخِّن، رأيت سيجارته تشتعل، سألته مازحة: هل تسمح؟

حملت السيجارة كأنني أمثِّل، لكنه تركني أقرِّبها من فمي فابتسم مستغربًا، سحبت نفسًا، ثم نفخت فيها فطار رمادها. في هذه اللحظة دخلت أمي. ضحك فهد. كان يريد أن يقول لأمّي إنها مزحة، مجرد مزحة، خفتُ، وكدتُ أن أختنق. حملت أمي فردة حذائه المصفوف عند باب الغرفة ورمتني بها، ثم قالت:

– يا خسارة تربيتي فيك، ظننت أنك رجل!

شعرتْ أمي بالخذلان، فكفَّت ربما عن التعويل كثيرًا على أبنائها.

كان فهد يكره العنف، وزاد كرهه له يوم عاد إلى البيت متأخرًا، وكانت أمي تنتظر عودته، فشمَّت رائحة سجائر في ثيابه. كان التدخين أمرًا مريعًا في ذلك الوقت، فضربته.

هرب فهد في الصباح من البيت واختفى لثلاثة أيام، لكنه عاد مرة أخرى لأن الامتحانات كانت على الأبواب، وأصبح يتحاشى التواجد في البيت طويلًا. صار يتعذَّر بأعذار لا تعجب أمي ولا أبي، لكنها تبقيه في محيط معروف. وعندما بدأت الامتحانات، أصبح والداي يتغاضيان عنه. عندما شعر بأنهما يهتمان لنجاحه ويسألانه بقلق، سلَّم ورقة امتحان مادة الإملاء في اليوم الأخير بيضاء فارغة. كان يريد أن يقول إنه لم يرسب لأنه ضعيف، بل لأنه لا يريد أن ينجح. قرر أن يرسب ليعاقبها على ما فعلته في تلك الليلة.

التحق بالعمل في شركة بترول سعودية أميركية تُعِدُّ خريجي الثانوية لبعثات خارج المملكة بعد تسعة أشهر من التدريب.

كانت هذه الفرصة خيارًا جيدًا ليبتعد عن البيت، لأنه يحبُّ أمّه كثيرًا ولا يريد أن يخسر صورة حبها له وحبه لها ولو في خياله.

أخذ ينام في السكن الخاص بالعمل تحاشيًا للعودة إلى المنزل. ما عدنا نراه كثيرًا، لكننا لم نفتقده كثيرًا لأن حضوره كان ناعمًا ورقيقًا ولا يشعر بوجوده أحد.

لم يكشف لأمي سرَّ تخطيطه للسفر. لا يريد أن يتحداها حينما

تقول له كعادتها: يا أنا يا الكرة، يا أنا يا التدخين...

خاف هذه المرة من أن تقول يا أنا يا السفر، رغم أنه في كل مرة يختار ما أراد هو، وتتحاشى هي أن تذكِّره مرة أخرى بالجواب الذي اختار.

بعد موت والدي بستة أشهر سافر، ثم كلَّم أمي بعد أشهر قليلة، قال لها:

– أنا مبتعث للدراسة في كندا.

وصلتُ إلى المستشفى الساعة الثامنة إلا عشر دقائق. وجدتُ رجلًا كبيرًا في الستين من عمره، تحمل عيناه هلعًا ويفرك يديه بحسرة. سألني حالما وصلت:

– أين المديرة؟

نظرتُ نحو باب غرفتها فكان مغلقًا، قلت له:

– لم تأتِ بعد، هل من خدمة؟

– أريد التحدث إليها، الأمر عاجل ومهم.

جاءت السكرتيرة، الفيلبينية بعدي بدقائق. أشرت له بأن هذه سكرتيرتها ويمكن ترك رقم هاتفه معها لتحدِّثه حالما تأتي.

قال:

– سأنتظر.

دخلت شذا مكتبي وقالت:

– هل عرفت من هذا الرجل؟

– لا!

– إنّه والد جهير، ويريد سارة في أمر يبدو أنه خطير.

– جهير لم تأتِ اليوم، هل تظنّين أن شيئًا سيئًا حدث لها؟

ذهبت شذا لتطلب سارة على هاتفها المحمول فلم تردَّ، فسألتُ الرجل وأنا أصبُّ له من قهوتي:

– هل جهير بخير؟

شعر بعد أن شرب فنجان قهوتي ببعضٍ من مودَّة، بأنني سأفهم ما يقول، خصوصًا وهو يراني قد وضعت نقابًا على وجهي:

– جهير هربت.

– كيف؟

– إخوتها الفاسدون تستَّروا على هربها مع طبيب باكستاني يعمل هنا في المستشفى. زارني أخوها دحيم أمس وقال إنها سافرت إلى أمريكا لتتزوجه! كلُّهم تآمروا عليَّ وأنا آخر من يعرف، لكنني لن أدع الأمر يمرُّ بسهولة، سأقلب الدنيا على رؤوسهم، سأطلبهم عند الشرع، سأعاقبهم كلهم.

– إهدأ، إهدأ يا عم، شذا صديقتي ستتصل الآن بسارة لتأتي.

رنّ هاتف المستشفى، رفعت شذا السماعة وردَّت على الهاتف. كانت سارة هي من اتصل، قالت شذا بصوتٍ خافت:

– والد جهير هنا ينتظر، يريدك في أمر هام. جهير هربت من البلاد لتتزوّج بـ "أكبر" الطبيب الباكستاني، وهو الآن غاضب.

لم تمضِ نصف ساعة إلا وكانت سارة مع والد جهير يتحدثان في مكتبها، والباب مغلق عليهما.

انتشر خبر هروب جهير في المستشفى كنار في الهشيم، وأطلق دخان النميمة والثرثرة في أروقة المستشفى، خصوصًا أن جهير حتى مساء البارحة كانت على رأس عملها.

كلُّ من عرفها تعجَّب لتصرُّفها. لم يستطع الزملاء والزميلات تصديق ما حدث، وعندما خرج والد جهير من مكتب سارة، أكَّدت سارة، بنفسها، الخبر. ناقش الزملاء المتعاطفون مع جهير الأمر بعقل منفتح على غير عادتهم، وفتَّشوا لها عن عذر.

– جهير امرأة ناضجة، هي التي رعت عائلتها، أمَّها واخوتها، حين تركهم والدها بأنانيته وبخله وذهب يمرح مع زوجة صغيرة، وينجب أولادًا جددًا، تاركًا عائلته من دون رعاية، ومصاريف... جهير هي التي ربَّت اخوتها الصغار، وساعدت كل واحد منهم حتى كبروا، هم يعرفون بأمر هرَوبها ويوافقونها عليه.

قال زميل آخر:

– ما فعلته جهير لا يخالف الإسلام، فهي ثيب، أي مطلَّقة،

ويحق لها أن تزوِّج نفسها من تشاء. الدكتور "أكبر" رجل مسلم.

ما كان لجهير أن تحصل على كل هذا التعاطف لولا أنها كانت تُظهر تديُّنها الشديد بيننا. قالت سارة:

– ليس هذا مهمًا، إنّ ما يبحث عنه والد جهير الآن هو الرجل الذي ساعد ابنته على الخروج من المطار من دون إذن خطِّي منه، وهو يظن أن أحدًا من زملاء جهير في المستشفى قد سهَّل لها تخطِّي القانون. الله يستر! لا نريد فضائح! ماذا سيقولون عن قسمي؟ الفتيات يهربن فيه مع عشّاقهن؟! هذه فضيحة وعار سيلحقان بالقسم! سمعة القسم عندي أهمُّ من أي شيء آخر، سأذهب لمقابلة مدير المستشفى! إن لم يكن والد جهير قد وصل قبلي!

همست لي شذا:

– أقسم بالله أنّ الغيرة تنهش قلبها، وتحسدها. سارة تتمنّى لو فعلت مثلها.

ضحكتُ فنظرتْ إليَّ زميلتي الجاسوسة، غمزتني وسألتني:

– ماذا قالت شذا؟

– شذا تتمنى لو كانت مكان جهير الآن.

ضحكت زميلتي الجاسوسة وصدَّقتني. قال أحد الزملاء:

– ولماذا لا يكون. أحد إخوتها الذكور هو الذي سمح لها بالخروج؟

لم تسمعه سارة لأنها كانت قد خرجت من مكتب القسم، وتوجهت إلى مكتبها. فتحت حقيبتها وأخرجت إصبعًا من الروج الأحمر ومرّرته على شفتها، ثم أخرجت قارورة عطرها، ورشّت أثيرها على كامل ثيابها من فوق إلى تحت، ثم خرجت وتركت الممر يعبق بعطرها المميَّز "الملاك الطاهر".

دخل وليد مكتبنا. كنا صامتتين أنا وشذا، وكأنَّ على رؤوسنا الطير. سألنا وليد:

– عسى ما شر؟

شرحتْ له شذا القصة كاملة. استقبل الموضوع بهدوء قائلًا:

– والله العظيم إن من سهَّل مهمة خروج جهير سيدخل الجنة.

قالت شذا:

– ماذا؟! أنا شخصيًا لا أستبعد أن تكون حضرتك من ساعدها، فأنت انتحاري.

– أنا انتحاري فقط في الحب.

نظر إليَّ، ثم قال:

– لنتحدث بجدية الآن؛ للأسف أنني لست هو، لكن لماذا أنتن متكدرات؟ ولماذا أنت غاضبة يا شذا؟ المرأة لم ترتكب خطأ، ما فعلته من حقها، ظروفها هي التي جعلتها تضطرّ للسفر لتمارس حقها في بلاد النصارى. أليس في هذا غرابة؟

– أنا لست ضدّ ما فعلته يا وليد، أنا ضدّ الدور الذي لعبَته معنا. جهير لعبت دورًا مستمرًا ضد حريات الآخرين باسم الإسلام، طوال الوقت، بل إن جهير نفسها لو كانت هنا وسمعت أن قصتها هذه حدثت لأحد غيرها لحاربتها، وصارت أول المعارضين والقادحين والمجلجلين! هل تعرف يا وليد أن لها برنامجًا يوميًا منظَّمًا تلتزم به، وتظن أنها تؤجر عليه، وهو قراءة الصحف، كل يوم، وجمع مقالات لكتَّاب تتَّهمهم بالعلمانيين، وتكتب فيهم شكوى لهيئة كبار العلماء وتطالبهم بالتدخل لوقف تخريبهم لعقول الناشئة، يساعدها في ذلك طبيب طويل اللحية أراه يمرُّ عليها هنا في مكتبنا أحيانًا، وأسمعهما يتحدثان عن ردود بعض الشيوخ عليهما.

– وكيف تأكدتِ من أنها تقوم فعلًا بدور شرير؟

– مرة تحدَّثت عن مقال لكاتب اسمه عبد الله بن بخيت. قلت لها إنني لم أقرأه وتمنيتُ لو تزوِّدني به إن كان لديها. أحضرته لي مع مجموعة من مقالاته. كانت تضع لهذا الكاتب، على ما يبدو، ملفًا خاصًا به. وجدت على كل مقال عبارة "دعوة صريحة لتحرير المرأة، أخي المسلم، بادر بإنكار هذا الفكر والاتصال على مكاتب الجريدة وهيئة كبار العلماء. جزاك الله خيرًا". ومقالة أخرى مكتوب عليها "إلى فضيلة شيخنا حفظه الله، السلام عليكم، نرجو الاطِّلاع والإفادة، ونفيدكم بأنّنا قد خاطبناهم، تلميذتكم فلانة". وعلى مقال آخر "الأخ عمر الرجاء قراءة هذا المقال والتعاون معنا لوقف هذا الكاتب عند حدّه".

يبدو أن جهير مع الوقت تنسى أمر ملاحظاتها، وملاحقتها للكتّاب الذين يطالبون بحقوق طبيعية، مثل تمكين المرأة في المجتمع العام من حقوقها، تطوير التعليم، الخ. بل إنها أحيانًا تستخدم فاكس المستشفى لبعث رسائلها، وماكينة التصوير لتصوير المقالات والردود التحريضية عليها. أما هاتفها الجوّال، فترسل منه رسائل تحريضية لكل قائمة الأسماء المخزّنة لديها. وصلتني مرة إحدى هذه الرسائل. كانت مقالة لكاتب يقترح فيها استخدام المرصد الفلكي العلمي لرصد هلال رمضان وهلال شهر الحج، بدلًا من الرؤية بالعين المجرَّدة. اعتبرت هي أن في مقالته تطاولًا على هيئة كبار العلماء، وتقليلًا من مهابتهم، وأنه لا يجوز مناقشة هذا الموضوع في الصحف علانية مع شخص غير كفء، رغم أن الكاتب هو بروفسور في الجامعة. وصلتني هذه الرسالة إما بالخطأ، لأنني ضمن قائمة الأسماء في جوّالها، وإما أنها ظنت بي ظنًا حسنًا وأني لن أخذلها، وسأهبُّ للدفاع عن حمى الإسلام كما تعتقد. لماذا تظنّ اليوم أن من حقها أن تستخدم حقوقًا، في حين "تلعن أبو" من يفكر في نيل ربع الحق الذي خطفته، الهروب، والسفر من دون إذن للخارج، وتزويج نفسها من باكستاني، ولو كان مسَلمًا؟!

(١٨)

كانت الشمس قد غربت سريعًا في مساء ذاك الشتاء الساعة السادسة مساءً. غادرت المستشفى. هبَّة هواء باردة لفحت وجهي، والصمت يبتلع المكان من حولي، وإضاءة الردهات البيضاء تشيع في المكان كآبة تقبض الصدر دونما سبب. رنَّ هاتفي عدة مرات. كنت أرد لكن لا أحدًا لم يجب. دخلت المنزل، وجدت أمي على سجادتها تصلِّي. ثم تلفَّتت:

- السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام ورحمة الله. هل نامت مي؟ لا أجدها هنا؟

نظرت إليَّ شامتة. أعرف هذه النظرة التي تبرق في عينيها حين تضبطنا بالجرم المشهود، نظرة غريبة مختلطة بين الحزن والفرح، النشوة والألم، الخيبة والانتصار، يصعب حتى على صاحبها أن يفهمها من شدة تعقيدها، كمن يفرح بخنجر ينغرس في قلبه، فقط لينظر في عيني قاتله ليقول له: ضبطتكَ متلبِّسًا بقتلي.

ردَّت عليَّ:

- الله يقطع البنات.

ثم عادت تصلّي.

انقبض قلبي. لم تُغضبني دعوتها الشريرة عليَّ، بل ما وراءها. فأمي ما كانت لتتجرأ عليَّ من جديد إلا لأنّ هناك كارثة تلوح في الأفق. شعرت بخدِّي ساخنًا، كأنه تلقَّى للتو صفعة حارة، وارتفعت حرارة جسدي غضبًا وقهرًا، وأصابت جسدي حمى تشبه حمى ضربها القديمة. سألت نفسي: منذ تزوجتُ وأمي لم تعد تخاطبني بهذه اللغة المكشوفة والعارية بالعنف والضيق، انشقَّ بيني وبينها صدع أرضي بحيث لم أعد أسمع عباراتها الجارحة، خصوصًا أنها صارت تتحفَّظ في مخاطبتي بعد أن عملت في المستشفى، ولم أعد أحتاج إلى نقودها، فلماذا خاطبتني اليوم بهذه الجملة؟

ذهبت إلى غرفتي فلم أجد مي، مررت بغرفة عواطف فلم أجدها هناك أيضًا.

جلست في الصالة، أفكر وأنتظر. أمي تتركني أسيرة القلق وكأنها تريد أن تزيد من عذابي. تتّجه نحو القبلة وتصلّي وأنا أجلس ناظرة إلى شاشة التلفزيون الصامتة وأراقبها من دون أن أنتبه للصور.

انطلقت صرخة متقطّعة في حديقة المنزل الأمامية، دخلت مي، وحالما وجدتني ركضت نحوي ودفنت رأسها في حضني، ثم

بكت وهي تنتفض. دخل إبراهيم يجرُّ شعر عواطف وهي تصيح:

- اتركني! قلت لك اتركني! أنت تصدِّقهم ولا تريد أن تصدِّقني.

- ولماذا أصدقك يا فاجرة؟! كل شيء صار معروفًا الآن!

دفع إبراهيم عواطف إلى الأرض. لم تسقط كلها، استندت على كفَّيها وحمت ركبتيها من ملامسة الأرض، ثم نهضت بسرعة. همَّ إبراهيم بالانحناء نحوها وهو يرفع قدمه لرفسها، لكنها ركضت إلى غرفتها. في تلك اللحظة سلَّمت أمي على عجل، ركض إبراهيم نحو غرفة عواطف وركضت أمي خلفه، أخذتُ مي وركضتُ بها، في حين كان صراخ إبراهيم وأمي يقطع سكون الليل:

- افتحي يا كلبة، سأكسر عليك الباب!

فتحت المكيِّف وأدرت فيلم كارتون من أفلام مي وأنا أغيِّر ثيابها. سألتها:

- ماذا حدث؟

- شاهدتُ عمو ماجد يحدِّث خالتي عواطف.

عرفت الآن أن ماجد هو الشاب الذي تعرفت عليه عواطف عبر "الشات" على شبكة الإنترنت، ثم صارت تحدِّثه على الهاتف.

- ثم ماذا حدث؟

– جاء رجل له لحية طويلة، وضع يده على يد ماجد وسحبه بعنف وتكلَّم بصوت عال مع عواطف، ثم أخذنا كلنا وركبنا في سيارة كبيرة.

في الصباح، أخبرتني عواطف عن ليلتها العاصفة التي قضتها هي وماجد في مركز "هيئة الأمر بالمعروف". قالت:

– لم يمضِ على دخولي إلى المكتبة سوى دقيقتين، ذهبت لآخذ من ماجد شريطًا يتضمَّن أغاني نسخها لي من الإنترنت، وقفتُ خلف رفوف كتب الأطفال، وراحت مي تتفرج على أغلفة القصص الملونة، تنتقي واحدة ثم تضعها لتختار الأخرى. تقدَّم ماجد نحوي، لم يمدَّ يده ويصافحني، كنَّا خائفين، وقف بجانبي، صرنا نتحدث بهدوء. لم تمضِ دقيقتان على حديثنا حتى جاء أحد رجال "الهيئة"، أقبلَ نحونا مثل نسر، أجنحة عباءته السوداء الخفيفة تطير خلال تقدُّمه السريع، كان يحدِّق في عينيَّ، تعلَّقت عيناي بعينيه، شلَّني الخوف، تجمَّدت رجلاي في مكانهما، لم أستطع أن أفعل شيئًا أو أتفوّه بأية كلمة، شعرت بظلام عباءة سوداء تهبط عليَّ، ارتبك ماجد، نظر إليه الرجل النظرة الغامضة السوداء ذاتها التي ترسل سمًّا يشلُّ ضحيتها، يقيِّدها، يجعلها مستسلمة وراضخة، تنفِّذ ما يُطلب إليها، قال لنا: تفضلا معي. مشينا معه وجندي صامت مثله يتبعنا. تبعتنا مي تسألني: لماذا نذهب خالة عواطف؟ لم أنتهِ بعد! فيما كنا نهبط درجات السلَّم الكهربائي، التقت نظرات رجلِ الهيئة بنظرات العامل المصري الذي كان يبيع في قسم الكتب الإسلامية، نظرة اتفاق وكأنه يخبره بأن الأمر تم على ما يرام.

أخبرها ماجد في اليوم التالي أن هذا العامل المصري هو الجاسوس الذي اتصل بالهيئة وأخبرهم عن لقاء مريب بينهما. ومن سوء حظهما أن سيارة الهيئة كانت في الشارع المجاور فجاءت كالبرق.

سمعت عواطف في مركز الهيئة كلامًا كله كذب. قال لها رجل الهيئة: اعترفي! صديقك اعترف بكل شيء فأخلينا سبيله. لقد اعترف بأنه ألتقى بك مرات في شقة خاصة.

- طلبوا إليَّ أن أعترف! كيف أعترف بشيء لم يحدث؟! لكنهم وعدوني إن أنا وقَّعت على هذا الاعتراف وعلى التوبة، فإنهم سيتركونني أعود إلى البيت، وأنهم سيتسترون علي ولن يعرف أحد من أهلي بما حدث. كل هذا ومي معي تنظر وتبكي. وقَّعت على الاعتراف، أردت أن أعود إلى البيت، لا أريد مشاكل، ولن أواعد ماجد مرة أخرى في أي مكان، لكنّهم ما إن سحبوا الورقة من تحت يدي حتى غمز أحدهم لرفيقه: اتصل بأخيها ودعه يحضر وأخبره بكل التفاصيل، وليطَّلع على اعترافاتها. جاء إبراهيم، أدخلوه غرفة المدير، قالوا له القصة الملفَّقة ذاتها. هم كاذبون لكن إبراهيم صدَّقهم، وطلب إليَّ أن أعترف بأن كل ما سمعه منهم صحيح.

ماجد، الشاب الصغير، لم يُرضِه ما حلَّ به وبعواطف من إهانة تسبَّب بها العامل المصري. في اليوم التالي، قرّر أن ينتقم على طريقته، فجمع رفاقه ولحقوا بالعامل المصري عند خروجه من

المكتبة عند الساعة العاشرة ليلًا حتى اختلوا به في حارة بعيدة عن الناس. فتحوا باب سيارته وأنزلوه وأوسعوه ضربًا.

قال له ماجد وهو يضربه بحنق:

– كفَّ عن فضح الناس وتوريطهم مع الهيئة.

– غصبًا عنّي، يا بيه، ما اخترتش أعمل كدا، قالوا لي إن ما عملتش كده، حَيسفَّروني من البلد! يورِّطوني في أي مصيبة ويمشُّوني، أنا بَصرف على عيال، انا جاي آكل عيش، عندي كومة لحم يا بيه.

قال له ماجد:

– فتِّش لك عن طريقة أخرى أشرف لك من التجسس.

ثم تركه باكيًا، يشكوهم لله، ومعهم كل السعوديين والبلد الوسخة دي واليوم الأغبر الذي جاء فيه إلى هنا.

(١٩)

لم يتجاوز إبراهيم الثامنة عشرة بعد. هو الأخ الأوسط بين ستة من البنات والذكور. لم يكن الذكر المفضل عند أمي مثل أخي فهد، و لم تفرح به كثيرًا عندما رأت محاولاته لحصارنا بعصاه وينوب عن والدي في رعايتنا. كانت تظن أن النتيجة ستكون هي ذاتها التي انتهت بها مع ابنها فهد الذي دلَّلته وسقته حبًا لم تمنحه لأحد، ورغم ذلك خذلها. كانت قد أيقنت أن زوجها لا يقوى على إنجاب الرجال، وكل ذلك منحه إياه ولا بد أنه يشبهه: ضعيف متخاذل، يرقُّ قلبه كالنساء، مثلما يفعل هو مع بناته، يطيعهن ويحبهن كل هذا الحب، ويدافع عنهن ويحقق رغباتهن.

جابه إبراهيم الإهمال وسوء الحظ أكثر من أي فرد في العائلة، فلم تشفع له ذكورته عند أمي لتمنحه حبها، و لم يكن فتاة ليكسب شفقة أبي، و لم يمنحه عنادنا نحن الفتيات الثلاث، المدربات على العراك المستمر، فرصة للتسلط علينا، فأمي تكفينا. لهذا صعب على إبراهيم أن يمرِّن رجولته، حتى على أخواته الإناث. عاش مهمَّشًا طوال الوقت في المنزل. حاول أبي استغلال ضعفه

وتوسُّطه بيننا والاعتماد عليه لقضاء بعض أموره، فلم تكن أمي تسمح لأبي بأن يأخذ فهد معه في مشاويره لمعاونته، لأنه يجب أن ينتبه لدروسه، بينما تخلَّت عن حماية إبراهيم لسبب غير معروف، فكان إبراهيم في صغره يكلَّف بالذهاب لقضاء أشغال والدي، كحمل العقود لبعض العملاء، أو العمل في مكتبه من بعض الظهر حتى المساء، حتى في أيام الامتحانات.

كان إبراهيم يبكي كثيرًا لأنه يرى أنه الوحيد الذي يكلِّفه أبي بتلك المهام، فيما فهد يلعب كرة القدم ويهرب من البيت كل مساء. لم تهتمَّ أمي به كثيرًا، كما فعلت مع فهد؛ كانت مشغولة برضيعها محسن. تركت إبراهيم لتسلُّط أبي غير المعهود الذي صادف سوء حظ إبراهيم وضعفه، إن وجده أبي في طريقه كل يوم سحبه معه أينما ذهب، حتى إلى صلاة الفجر في المسجد. كان والدي يجرُّه ليصلِّي معه، وهو نصف نائم.

داوم إبراهيم على الصلوات مجبرًا، لا بطلًا. لفت هذا الصبي المطيع نظر إمام المسجد، أُعجب الإمام باستقامة الولد الصغير، أخذ يراقبه، منحه اهتمامًا لم يلقه من أحد من قبل، صافحه كرجل بعد صلاة العصر في أحد الأيام، امتدح مثابرته على الصلاة، وسأله:

– في أي صف أنت إبراهيم؟

– في المتوسط.

- خذ هذا الكتاب، اقرأ الفقرات التي وضعت تحتها خطوطًا بالقلم الرصاص، صفحة ونصف تقريبًا، تمرَّن على قراءتها، أريد منك أن تلقيها بلغة سليمة في درس صلاة العصر غدًا.

عاد إبراهيم يحمل الكتاب، يشعر بزهوٍّ لم يختبره من قبل؛ للمرة الأولى يمنحه أحد ما اعتبارًا شخصيًا ويخاطبه كرجل. سهر تلك الليلة يقرأ ويحفظ ويجوّد العبارات، حتى إنه في نهاية الأمر وجد نفسه يقرأ طريقة الإمام المجوّدة نفسها ويُخرج صوت الحروف من أنفه لا من حلقه، فشعر بالرضا عن نفسه، وعندما ألقى الدرس سمع الحي كلُّه صوته من خلال "مايكرفون" المسجد. ابتسم والدي ووالدتي وهما يسمعان صوته من دون أن يفهما معنى كلماته غير الواضحة تمامًا، وسمعه الجيران ورفاقه في الحي. مشى ذلك اليوم في الحارة مزهوًا كالطاووس، والكل يمطره بعبارات الإطراء:

- عشتَ والله يا إبراهيم! بارك الله فيك!

- ما شاء الله! ونعم الولد أنت!

- أصلحك الله وهداك!

- هنيئا لوالديك بك!

عرف إبراهيم نكهة أن يكون المرء فخورًا لاهتمام الآخرين به بعد أن كان في الهامش. ذاق طعم الود بعد الإهمال واللامبالاة. أحبَّ هذا الدرس الذي أخذه من الهامش إلى المركز، وقرر في

دخيلة نفسه أن يقبض عليه بروحه حتى لو نازعه الموت عليها، وامتنَّ كثيرًا للإمام الذي صار يعتمد عليه كثيرًا في إلقاء الدروس، والآذان، وتعلَّق به، ولم يعد يرفض له طلبًا. صرنا نسمع صوت إبراهيم بعد كل عصر يصدح بالقراءة من "مايكرفون" مسجد الحارة الذي يبثُّ الآذان والإقامة والدروس أيضًا.

أكثر من كان يهتم برؤيته هي جوزاء ابنة جيراننا البدوية. كانت تكثر الوقوف عند باب بيتهم، تفتح بعضه وتترك عينًا واحدة مسرجة لالتقاط الرائح والغادي، تكلم البنات اللواتي يلعبن في الشارع وترسلهن يشترين لها الحلوى والساندويتشات والعصائر. رأت إبراهيم مرة يقف بالباب وينظر، أشَّرت له بيدها، كلّمته وفتحت الباب أكثر، رأى إبراهيم جوزاء التي تكبره بخمس سنوات، رأى قامتها القصيرة الممتلئة، وتورُّدَ خدَّيها وعينيها المدعوجتين بالكحل، سرقت ابتسامتها قلبه. ارتبك وهو يلمس هذا الارتعاش الخفي في جسده، كاد أن يهرب لولا أنها مدَّت له يدها بريال، وطلبت إليه أن يشتري لها علبة من الـ "البيبسي" الباردة. قالت:

- اشترِ لك واحدة أيضًا.

- لا، شكرًا، لا أريد.

طار إبراهيم وقلبه يغرد وجناحاه يحملانه عن الأرض، وكلما زاد هذا الشعور في قلبه وجد أن سائر أعضاءه تتداعى بالارتجاف والحمَّى.

عندما أعطاها علبة الـ "البيبسي" الباردة لمس يدها الدافئة. تعمَّدت أن تلمس أصابعُه عاج أظافرها المشذَّبة بعناية واللون الأحمر في أظافرها يبرق في قلبه. جرَّته من يده وقرصت خدَّه ثم قبَّلته. كل هذا حدث في ثانية مرت سريعة كالبرق، لكنها صعقت إبراهيم، شلَّته، أحرقته، وترك الدخان الصاعد من رأسه من ورائه قلبًا يحترق.

لم يفلت من جوزاء أبدًا. كلما ظهرت قامته القصيرة من الباب كانت جوزاء له بالمرصاد، تقف عند الباب البعيد المقابل وتنتظر. صار يتعمد الخروج كثيرًا فيجدها دائمًا هناك.

عاد إبراهيم ذات مساء خريفي هادىء النسمة ينشر السكون في القلوب والبيوت معًا، وقبل أن يميل بجسده نحو البيت، التفت كعادته نحو الباب حيث يمكن أن تقف جوزاء. لم تخب توقُّعه، رآها في المكان ذاته وقد أطفأت نور سور المنزل حتى لا يفضح وقوفها أحد، لكنها هذه المرة لم تكن تخطط للوقوف ورؤية إبراهيم فقط، لأنها ما إن رأته حتى مدت له يدها ونصف رأسها وهمست: تعال.

ركضت إلى سلَّم سطح المنزل المجاور للباب، لكنه تسمَّر عند الباب خائفًا. هبطت جوزاء وسحبته من يده. حين أدرك أنه داخل بيت جوزاء، ركض معها مستسلمًا للذة المغامرة، "الأدرينالين" الذي يضخُّ في دمه جعل كل شيء مختلفًا. أخذته جوزاء إلى السطح، حيث كان ظلام الليل يستر قلبه الواجف الطافر بفرح

المغامرة اللذيذة، وهو يجربها للمرة الأولى. أدخلته غرفة في زاوية السطح، بدت كمخزن للساقط من الأشياء. وضعت يديها على خدَّيه المتجمدين من الخوف، أسكنتِ في شفتيه جمرًا أشعل نارًا في وجهه، فتكسَّر جليد وجهه وسال بين يديها ماءً رطبًا. اكتشف إبراهيم تلك الليلة أن الحب ليس مصدره القلب كما يقولون، وما القلب إلا مولِّد كهربائي يضخُّ أول الحب في الدماء، لكنه ينتهي في مكان آخر، فتتدفَّق نشوة سرية تتغلل في عظامه وتترجَّف في بدنه ثم أطرافه، وينزف ماؤها في ثيابه الداخلية.

عندما عاد إبراهيم ذلك المساء من بيت جوزاء، دخل الحمَّام وأبطأ وهو يغتسل. أمضى طوال الليل ساكنًا في الحمام، لا نسمع إلا هدير الماء، وأمي تدق على الباب وتصرخ فيه:

– عمى أعماك! والله لو أنك تغتسل من نهر لجفَّ!

تقول أمي إنها رأته يخرج من باب الحمَّام عند صلاة الفجر، وهي تظن أن النوم غالبه هناك، لكن الإبطاء في الحمَّام وهدير الماء أصبحا يلازمانه عند كل اغتسال.

تكرر غيابه عن البيت كل مساء في نشاطات مدرسية ومكتبية ومعسكرات شبابية في أيام العطل الأسبوعية، ينام خلالها خارج البيت. لم ترتح أمي لهذه النشاطات والرحلات التي تأخذ ابنها كل هذا الوقت وتضايق أبي لأنها تحرمه من أن يستفيد من ابنه في عمله. لكنهما لم يملكا القدرة على منعه؛ كان إبراهيم يبكي، ويشكوهما للمدرسين، فيُحرجان من تدخُّل المدرسين الذين

يمرون عليهما بعد كل صلاة عصر، ويتدخَّلون لإقناعهما بعدم جواز منع ابنهما، لأنهما يمنعانه من نشاطات تعدُّ من أعمال الخير والصلاح والتقوى، وعن حلقات الذكر والحديث التي يؤجر المرء عليها، وبأن عليهما أن يشجعاه بالأحرى. يقول لأمي إنهم يمضون الوقت في حفظ القرآن، وتعلُّم الدروس الدينية، والتدرُّب على رياضة الجودو. وفي العطلة الصيفية يذهب إبراهيم في رحلة تمتد لعشرات الأيام، يزور فيها مكة لقضاء العمرة أو الحج، ثم المسجد النبوي. يُحضر إبراهيم معه من تلك الرحلات مسبحة لأبي، وسجَّادة صلاة لأمي، وماء زمزم، يشتريها بالقروش القليلة التي كانت أمي تعطيه إياها على مضض.

أخذ إبراهيم يحضر لأمي أيضًا أشرطة دينية كثيرة تتحدث عن الموت وعن عذاب النار، وعن الفتن التي تصيب الناس في هذا الزمن العجيب الذي يشارف على النهاية، وعن قرب قيام الساعة التي بدأت تظهر علاماتها. كانت معظم الأشرطة تتحدث عن فتنة النساء ومظاهر الفساد بينهن، فيحذِّرهن الشيخ من أن أكثر حطب جهنم من النساء بسبب تكفيرهن للعشير، وبسبب ألسنتهن، ما جعل أمي تزداد كدرًا فوق كدرها، وكآبة، وتكفُّ عن الحديث والخروج لزيارة جاراتها حتى لا تعود وعلى ظهرها كيس من الآثام.

حملت على عاتقها مهمة جديدة، وهي إعادة تأهيل أهل بيتها للصراط المستقيم وإنقاذهم من النار التي تتوعَّدهم، فتهددنا عند كل خطأ صغير بالنار التي وقودها الناس والحجارة. حتى أصغرنا

من الأطفال صار يفكر بالنار كثيرًا، ويخاف من وعيد الله.

سقطت مفردة الرحمة من قاموس أمي، وكأن هذه المهمة الجديدة كانت خلاصًا مناسبًا لغضبها المستعر دومًا مثل نارها التي تتوعّد بها الجميع، تلاحقنا بأوامر الصلاة، فيهز صراخها وطرقها المفزع على أبواب غرفنا أركان البيت، وهي تصيح بنا:

- هيا انهضوا! ستصبحون حطبًا لجهنم!

صارت تكسر أشرطة الأغاني التي تعثر عليها في أنحاء البيت، أو في غرفنا، وما تعثر عليه من تلك الأشرطة في المسجلة التي تستخدمها لسماع أشرطتها الدينية، فصارت عواطف تخبئ أشرطتها في الأدراج وتقفل عليها بالمفتاح، وأخذت أمي تصوم كل يومي اثنين وخميس، وتستأذن أبي مرغمة بأنها ستصوم لأن الزوج يجب أن يأذن لها بصيام السنَّة. شعر أبي أن أمي بدأت تضعف له بسبب تديُّنها، فاستغل هذا الضعف الذي انتهى بأن أذعنت لرغباته الليلية، لأن من ترفض نداءات زوجها ستلعنها الملائكة.

صار إبراهيم أكثر ثقة بالنفس، لكنه راح يزداد تجهُّمًا وهو يقلد أساتذته في المعسكر، في طريقة حديثهم، وفي الهدوء والتعقل. صار يُظهر سلوكًا يليق بعمر أكبر من عمره، يكره الفنون كلها؛ الشعر والقصة والمسرح والأفلام والأغاني والاحتفالات والنفقات، حتى صارت روحه مثل مدينة ميتة، بل صارت لديه رغبة في أن يحوِّل حياته وحياة الآخرين إلى صوم كبير وأبدي. لم يعش مراهقته،

بل صار يخاف من النساء، فكلما مرَّت أمامه الخادمة يرتعب ويهرب، بل كان يرتعب كلما جلست إحدى أخواته بجانبه، يشعر دائمًا أن الشيطان قد يزيغ عقله في أيّ لحظة إن لم يكن متنبِّهًا له. كفَّ عن مخالطة النساء حتى لو كنَّ أخواته وخالاته. حتى إنه صار يخاف من جسده. قال مرة لعواطف أختي إن المعلم في المدرسة نهاهم عن خلع سراويلهم الداخلية أثناء الاستحمام لأن الملائكة تضحك عليهم.

وافقته عواطف، لأنها أيضًا سمعت الملاحظة ذاتها من معلمتها.

وقفت سيارة إبراهيم مقابل الباب وهو ينظر لعقود من الأنوار المضاءة وقد مُدَّت أمام باب أهل جوزاء، والأرض الفارغة مقابل البيت وقد فرشت بسجاجيد حمراء، وفي فسحة ترابية أُوقدت النار وصُفَّت دِلال القهوة والشاي وبجانبها رجل يعنى بها. حشد من الرجال بينهم والدها وأخوها الصغير يقفون مقابل الباب يتحدثون. انقبض قلبه لمرأى حفلة عرس في بيت جوزاء، فهو يعرف أن جوزاء هي أكبر الأبناء.

دخل إبراهيم إلى البيت تفوح من ثيابه رائحة حطب محترق، وعلى وجهه سمرة لوَّحتها شمس صحراوية ساخنة طوال الأيام العشرة التي أمضاها في معسكر الشباب حيث اعتاد قضاء أيام عطلة الربيع. رمى إبراهيم بفراشه الصحراوي المطوي بحبال الصوف الخشنة، قبَّل رأس أمي فدفعته عنها بلطف:

- رائحتك كأنها رائحة حظيرة ماعز.

لا تتزيَّن أمي إلا نادرًا، لكنها عندما تتزيَّن تصير امرأة أخرى، جميلة ورقيقة، تبتسم حتى يكاد المرء لا يصدق أنها المرأة ذاتها التي تصرخ فينا كل يوم. سأل إبراهيم وهو يرى أمي بزينتها وثوبها المقصَّب بخيوط الذهب، تضع مبخرة العود تحت ثيابها وتتعطَّر بدخانها:

- على وين إن شاء الله؟

- إلى بيت جيراننا. ابنتهم جوزاء ستتزوج ابن عمها ضيدان.

سعل إبراهيم وهو يسمع جملة أمي الأخيرة. أبعدت أمي دخان المبخرة عنه، قالت:

- ابتعد. ربما أن لديك حساسية.

لكن إبراهيم لم يبتعد، بل أخذ سعاله يزداد. كان سعاله أشبه ببكاء خفيف أراد به أن يخفي صوت النشيج في قلبه. سالت من عينيه دموع الاختناق، وأمي تضحك عليه وتقول:

- قلت لك ابتعد! ستختنق!

لم تدرِ أمي، وربما إبراهيم نفسه، أي نوع من الدموع تسيل بها عيناه، لكنه كان يرتاح كلما سعل وكلما سالت دموعه. كان وجهه المختنق من دخان البخور وعيناه المحمرَّتان من دموع الدخان وجهًا آخر اعتاد إبراهيم ألا يكشفه لأحد، حتى لنفسه، وخصوصًا عندما تزوجت جوزاء، المرأة الوحيدة التي ظن أنها أحبَّته.

المرأة الوحيدة التي صار إبراهيم يجالسها هي أمي. لكنه لم يبدُ في مجالستها محبًا لها. شيء ملحٌّ عليه يجبره على مجالستها، قوة جبرية مثل سيف مسلط على رقبته، لأن الوقت الذي كان يقضيه معها كان على الدوام مليئًا بالعتاب المر والمشاحنة المكتومة. يلومها على قسوتها عليه حين كان صغيرًا، وضربها الموجع له. تضيق أمي بعتابه المستمر وتقول:

– ألا تنسى؟ هذا الكلام في الماضي لم يعد ينفع. الكلام في الماضي ضياع في العمر.

لم ينسَ إبراهيم قسوتها عليه، ولو لم تكن أمه لهجرها وتركها وأقفل باب قلبه عن كل نساء العالم انتقامًا له. حديثه معها لم يخفِ نار حقد دفين على كل النساء. يظهر تقلُّبه في أحاديثه التي تنتهي غالبًا بصوت مخنوق بعبرة بكاء، ثم يعود فيتصالح معها. شعور المرارة في صدره يملأه الغضب دومًا على هذه المرأة التي يضطره الله على مسايرتها ومجالستها، في حين لم يشعر يومًا بأنها فعلت شيئًا من أجله. شيوخه يقولون له:

– أمك ثم أمك ثم أمك، حملتك وهنًا على وهن.

يشعر في قرارة نفسه بأن الوهن ينسى، يتذكر يوم وضع ظهره المتألم من كثرة الضرب على الجدار وسأل أخته عواطف:

– ألا يحبُّني أحد في هذا المنزل؟ أنا طفل صغير! ما الذي فعلته؟!

كانت عواطف هي الأخت القريبة من عمره، تشفق عليه وتلعب معه وتسلّيه.

كبرت عواطف وحاربته مثلهم، كبر الشقاق بينها وبينه، أصابها ما أصاب هذا الجيل الفاسد من البنات اللواتي يتأثرن بكل ما يسمعنه عن فتاة الغرب وحريتها الزائفة، واستسلمت لموج الموضة والغزو الاستعماري. صارت تتزيّن مثل الفتاة الغربية وتلبس الثياب العارية وتقصُّ شعرها وتسمع الأغاني. ليتها اكتفت بكل هذا! بل صارت له عدوًا أكثر من الغرب الكافر! كلما خاطبها بغية إصلاحها لأنها الوحيدة التي أشفقت عليه وأحبها، صاحت في وجهه:

– أنت متخلّف تعيش بعقول العصور الوسطى.

يفتقر إبراهيم الى قلب يحبه، قلب ضيّعه عندما كانت جوزاء تحبه. كان يلمّح لأمي برغبته في الزواج بها وهي تظنه يمزح. سألته لتفحمه:

– أين ستسكن؟ ومن سيصرف عليك؟

– أسكن معكم، وأبي ملزم بالصرف عليَّ ما دمت في بيته. أريد أن أحصّن نفسي.

رفضت أمي أن تزوّجه قبل أن ينهي دراسته الجامعية، خصوصًا أنه ذكي ومتفوق، لكنه قرر دراسة العلوم الإسلامية، وليس الطب كما كان يحلم ذات يوم، لأن العلوم التي يؤجر عليها المرء هي فقط

علوم الشريعة والدين، أما العلوم الطبية والإنسانية، فإن المرء لا يقصد منها وجه الله بل كسب المال والشهرة والأغراض الدنيوية الأخرى.

يحمل إبراهيم كلما دخل المنزل مطويَّات وكتيِّبات صغيرة الحجم بكميات كبيرة، تدور حول أدبيات المسلم المثالي، ومعظمها يحضّ الشباب المسلم على نصرة إخوانه في أفغانستان، وإحياء الفريضة الغائبة السادسة في الإسلام وهي الجهاد.

يعطي أمي عددًا كبيرًا من الأشرطة الإسلامية، ويطلب إليها أن توزعها علينا وعلى جاراتها، ويقول:

- إنها توزَّع مجانًا في الشارع وفي المحلات التجارية عند "الكاشير" في السوبرماركت وفي صالات الأفراح... منشورات ومطويَّات نراها أينما نذهب في المدرسة والجامعة وعيادات الأطباء وفي المستوصفات، وحتى في مدينة الملاهي. بعضها يحوي أسئلة قليلة تعد بجوائز من السيارات والأجهزة الكهربائية الغالية الثمن.

(٢٠)

اختفى إبراهيم أثناء فترة الامتحانات في سنته الجامعية الأولى في علوم السنَّة. اعتقدنا أنه غاب في مخيم طلابي آخر، لكن أمي ظلت قلقة. اتصلت بمنصور الذي وعدها بأن يمر عليها بعد صلاة العشاء في اليوم نفسه.

جاء منصور. كان لون وجهه مائلًا للسواد، ما ذكَّرني بمغائره المهجورة، والحالات التي تجعل ملامحه مطفأة لا روح فيها، وأخبر أمي بسرٍّ غياب إبراهيم قال:

– إبراهيم سافر لأفغانستان يا خالة. قسم الجوازات في المطار يؤكد أنه اتَّجه إلى باكستان، وغالبًا هذا هو طريق العبور إلى أفغانستان.

وضعت امي يدها على رأسها وأمسكته، وخرج صوت ملتاع من صدرها بحرقة:

– يا الله حفظك يا رب!!

نظرت عموشة من ثقب البرقع الذي على وجهها، وسألت منصور:

- ليش إبراهيم يروح للباكستان؟ راح يدرس أو يدوِّر له على شغل؟

قال لها منصور:

- لا يا خالة عموشة، ذهب يحارب مع الأفغان.

لم تفهم عموشة سوى "ذهب يحارب". فصاحت وهي تخبط على رأسها:

- يا الله الخيرة، يحارب؟ وهل ستصل الحرب إلى ديرتنا، فذهب يتلقَّى جيوشها هناك، وين راح إبراهيم، وخلَّى أمه وخواته؟ حسبي الله ونعم الوكيل!

عاد إبراهيم من أفغانستان بعد ستة أشهر فقط. صار أكثر غموضًا وتجهُّمًا وانطواءً، وصرنا نحن البنات نتحاشى مقابلته. كنا نختبئ في غرفنا حالما ندخل المنزل، ونطفئ المسجلة، ونكفُّ عن استخدام الهاتف، حتى لا نضطر إلى أن نبدأ معركة في البيت تنتهي بشدِّ الشعور والضرب، في معركة لا ينهزم فيها عنادنا، لكنها تدمينا وتجعل أمي تذهب إلى المستوصف في الصباح بسبب ارتفاع ضغطها.

لم يعد إبراهيم يحب الجلوس مع أمي وعموشة كما كان يفعل سابقًا.، صار يجلس وحده في مجلس الرجال، يقرأ ويتفرج على

قناة الجزيرة، ويجري بعض المكالمات الغامضة. عاد يخزِّن صناديق "كرتونيّة" في غرفة الطعام التي لا يستخدمها عادة أحد ويحتفظ بمفتاحها في جيبه.

في ساعة متأخّرة من إحدى الليالي دقَّ جرس الباب. رفع إبراهيم سماعة الباب الخارجي وسأل: من؟

خرج إبراهيم وليس في يده شيء، ثم عاد ودخل معه صديق له أخذ منه كل "الكراتين" التي في غرفته، ونظَّف كل الأوراق التي في غرفة الطعام المخصَّصة للضيوف والتي تحوَّلت إلى مخزن سري له. ترك كل شيء مفتوحًا ونظيفًا بعده، ثم خرج بعد صلاة الفجر وغاب.

هبَّت على منزلنا نسمات من الحرية. حتى مي الصغيرة قالت:

– يا ماما، هل سيعود خالي إبراهيم؟

– الله أعلم. لماذا تسألين؟

– لا أريده أن يعود يا ماما. إنه يكره لعبي ويكسر رقابها كلما وجدها في طريقه. لم أر من قبل رجلًا كبيرًا يكره لعب الصغار!

(٢١)

جاء الصباح هادئًا على غير العادة، لكنَّ أكثر ما افتقدته كان رائحة القهوة التي اعتدتُ أن تدخل أصابعها في شعري في الصباح، وتربت على خدي، وتدغدغ برائحتها أصابع قدمي.

كلما استيقظت صباحًا، كانت القهوة تستقبلني، وتبتسم في صحوي مثل وجه أم مشفقة ومبتهجة بنعمة الولد، تقول لي: صباح الخير.

يكفي أن أشم رائحتها في البيت، ليطمئن قلبي بأن عالمي بخير. خرجت من غرفتي. استقبلني حزنٌ حلَّ بالبيت منذ غياب إبراهيم. صار البيت بالنسبة لأمي كالجحيم لأنه فارغ من الذكور، صار كلُّه نساء، وأمي بدأت تشعر بأن النساء من دون رجل يرعاهن في خطر، وصارت تأخذ جرعة دواء أكبر مما كانت تأخذه لضبط سكرها.

وجدت أمي تقرأ القرآن على سجادتها، سألتها:

– أين البنات؟

- خرجن إلى المدرسة.

- باكرًا!

- أنت من تأخَّر، الساعة السابعة ونصف.

- أين القهوة؟

- لم نصنع قهوة، فأنا صائمة.

فوجئت بجوابها، فاليوم ليس من أيام الصوم المعتادة عند أمي كيومي الخميس والاثنين، ولا الأيام البيض من كل شهر، ولا الأيام الستة الأولى من شوال، فسألتها:

- لماذا تصومين؟

- كفَّارة.

ضحكتُ وقلت:

- كفَّارة ماذا؟ هل هو قسَم عدتِ منه؟

- لا، ولكنني منذ عشرين عامًا ولدت طفلًا اسمه محمد. كنت أرضعه ذات ليلة أيام النفاس الأولى، ثم غفوت، وحين استيقظت وجدته ميتًا تحت ثديي.

- أعرف هذه الحكاية، حدثت منذ زمن بعيد. فلماذا تتذكَّرينها الآن؟

- أخاف أن أكون أنا التي قتلته. اليوم سأبدأ صوم "شهرين" كفَّارة.

- ولماذا الآن؟

- في الماضي، كان سهلًا عليَّ أن أصدِّق قول الناس لي إن ميتة الرضَّع أثناء النوم أمر طبيعي، لكنني اليوم، بعد سماع أحد الشيوخ في التلفزيون، صرت أشعر بالخوف من أنني المتسبِّبة في قتله، وشعوري بالإثم لا يفارقني.

تركت أمي وخرجت إلى عملي في المستشفى، وأنا أتساءل إن هو جرح قديم تطفئه أمي بالصوم، أو هي تعاقب نفسها على ما حدث لإبراهيم.

في المستشفى، طلبتني إحدى الممرضات. كانت إحدى المريضات تعاني من نزف حاد في الرحم يستدعي إدخالها إلى غرفة العمليات. اتصلت الموظفة بزوج المريضة وهو لا يردُّ وحالتها حرجة. سألتها:

- ولِمَ لا تُدخلونها غرفة العمليات؟

- لا بد أن يوقِّع زوجها على الموافقة على العملية. هذا هو النظام.

- هل وافقت المريضة على العملية؟

- لا أدري.

دخلت إلى غرفة المريضة. كانت في الأربعين من عمرها، تعاني من آلام في بطنها. سألتها:

– هل حدَّثك الطبيب عن حالتك المرضية؟

– نعم.

– هل أخبرك بأنك تحتاجين إلى عملية؟

– نعم.

– هل أنت موافقة؟

– نعم.

– هل توقِّعين؟

– نعم.

خرجت إلى الممرضة وقلت:

– المريضة موافقة.

قال لي موظف الملفات الذي يقف بجانب الطاولة:

– الموافقة يجب أن تكون من وليٍّ أمرها.

– لكنه لا يرد وقد تتضاعف حالتها، ثم إنها امرأة في الأربعين، ألا تستطيع أن تتحمل مسؤولية قرارها هي؟

– أعرف، لكن من يتحمل المسؤولية في ما لو جاء زوجها و لم يعجبه الموقف؟

– ألسنا في مؤسسة حكومية، وأنا أمثِّلها كاختصاصية

اجتماعية؟ سأوقِّع على توقيعها.

- هل توقِّعين على المسؤولية؟

- نعم أوقِّع. أعطني ملف المريضة.

أخذت الملف إلى المريضة التي وقَّعت عليه، ثم وقَّعتُ تحت توقيعها.

أخذوا المريضة إلى غرفة العمليات، بينما بقيت أحاول الاتصال بزوجها في المنزل من دون أن يجيب أحد على اتصالاتي.

أخبرتني شذا أن أهلها يقيمون مخيمًا رائعًا في البر، وأنها ستلتحق بهم غدًا الخميس، وسألتني إذا كانت لدي رغبة في الذهاب معها، فقلت لها:

- لا أدري، ربما تعترض أمي على الفكرة.

- قولي لها إن لديك عملًا يوم الخميس، وسأمر في الساعة الثامنة صباحًا لأخذك من البيت.

- حسنًا... أفكِّر.

أحاول النوم لأطرد فكرة هروبي مع شذا إلى البر غدًا. لقد كبرت على مثل هذه العادات، أصبحت أفضِّل المواجهة والقتال على الكذب والهرب. أظن أنني أصبحت كبيرة إلى حد يجعل هروبي وكذبي دليلًا على خوفي وجرمي.

أمي مكتئبة منذ غياب إبراهيم. خذلها هو الآخر ورحل. بدلًا من أن يحارب عنها في بيتها، ذهب يحارب في أفغانستان. لا أحد يريد أن يحمل رايتها، كلٌّ منهما فضَّل حمل رايته الخاصة.

صحة أمي واضطرابها النفسي لا يساعداني على خوض معركة الخروج إلى البر مع صديقتي شذا، فهي تظن أن الحياة قد أدبرت وعلامات الآخرة قد أقبلت، وعلى الناس ألا يفرحوا بشيء. وإن وجدتْ أن هذه العبارات لن تغيِّر فيَّ شيئًا، ستعيِّرني بأنانيتي، لأن قلبي لا يزال يستطيب الخروج والتنزه فيما إخوتي غائبون.

لن أدخل مع أمي في خصام وهي ضعيفة وحزينة. فمن عادات المحاربين الشهمة ألا يحاربوا غدرًا، ولا يحاربوا الضعفاء، لكن قلبي ضعيف أيضًا ويحنُّ إلى وليد ويشتاق إليه، يخفق مثل طير حر يصفِّق بأجنحته في سجنه، ويودُّ لو أفتح بابه ليذهب إليه.

في المساء، كنت أقاوم فكرة الذهاب مع شذا حتى لو كنت سألقى وليد هناك. لكنني كلما أدرت ظهري عن قلبي، عاد وأطل عليَّ من الجهة الأخرى مثل طفل لحوح لا يمل المحاولة. انقلبت على جنبي الأيسر، وقد بدأت أسمع صليل السيوف ووقع جيوش الشوق تتقدم نحوي، طالبة مني الحرب أو التسليم.

شغلت نفسي بمحاولة الاتصال بوليد، رد صوتٌ مسجَّل يقول: "إن الرقم الذي طلبت خارج الخدمة مؤقتًا. الرجاء الاتصال لاحقًا وشكرًا".

كتبت له رسالة على خدمة الرسالة القصيرة تقول "أين أنت يا حبيبي؟" ثم ضغطت زرَّ الإرسال، ووضعت الهاتف قرب طاولة السرير. شعرت أن طيري قد تخفَّف من حمل شوقه فهدأ قليلًا. رنَّت نغمة استلام الرسائل في هاتفي الجوال مرتين، وصلتني رسالته: "أنا بانتظارك في البر تعالي".

ما إن قرأت كلماته حتى فتح الطير باب قلبي وطار، فقررت أن أتبعه غدًا.

(٢٢)

هبط السحاب على جبال العارض النجدي والطقس يودِّع آخر أيام شتائه النجدي بعلائم ربيع مبكر. شهر مارس هو الشهر الذي يواعده المطر ولا ينساه. في بلادنا، لا يهطل المطر كثيرًا، لكنه حين يهطل يصحب معه كل الأشياء المفرحة والحزينة.

للذكريات التي يبعثها المطر نكهة غريبة توجع القلب وتثير الحسرة على حياة فاتت لم نعشها.

مشاعر غريبة يثيرها المطر فينا، نسعد به وتنتشي أرواحنا، لكنَّ الأكثر غرابة أنَّ هذا المطر يجعلك تسأل وأنت في نشوة فرحك: "أيُّ سرٍّ يجعل للسعادة مذاقًا حزينًا؟".

على جانب الطريق الإسفلتي تنبت الأزهار الصغيرة، يلمع الماء كفضَّة فوق أطراف الأراضي البيضاء التي شربت من مطر البارحة و لم يبق لها أثر سوى لمعة ماء. يبدو الطريق خفيفًا، بعض السيارات العابرة عبَّأت صناديق الطعام متَّجهة نحو البراري لتقيم مخيمات الربيع.

فتحت الصحراء قلبها لأبنائها الهاربين من سطوة المدن، تهيأت لاستقبالهم كعروس تزيَّنت بالألوان. سماء زرقاء وغيم أبيض وأساور من ضوء الشمس المحتجبة، رمل أرجواني، وطيف شجرة أخضر يُدخل أصابعه في شعر الشجرة الأخرى.

أشرقت الشمس وأنا في الطريق كأنَّ أحدًا ما أيقظها فجاءت تتهادى على مهل، تبتسم. للخيام الملونة على طريق الثمامة تلال من الرمل ساحرة، وعلى الجانب الآخر سلسلة جبال طويق التي تشق قلب نجد من الشرق إلى الشمال. بقع ماء المطر تلمع كالفضَّة على المسطحات الصخرية التي نراها من نافذة السيارة. الرمال الإسفنجية شربت كل ماء المطر، ولمعت. بفرح لوَّحت الشمس على التلال المرتفعة، فخبأت الرمال ماء المطر تحت جلدها الناعم. تمد الشمس أصابعها تحت جلد الرمل حتى تدرك رطوبة الماء.

خرج وليد من الخيمة يستقبلنا. فرحٌ ورديٌّ أضاء في ابتسامته عندما رآنا. رداء العباءة الوبرية فوق كتفيه ذكَّرني بجدِّي عبد المحسن، عاشق سلمى. تلفَّع وليد بغترته الحمراء وشدَّ طرفها حول وجهه. فتح لي الباب وهمس بصوت منخفض:

- يا هلا! توّها ما أشرقت!

بعد الغداء ركبنا الجيب الياباني. أدار وليد جهاز "ماجلان" الإلكتروني، أضاءت شاشة الجهاز بخارطة إلكترونية، ظهر مكان الخيمة نقطة سوداء بارزة في الخارطة، قال وليد لشذا:

- أنظري هذا هو موقعنا، قمت بتخزينه هنا. وهذا الخط الأسود هو الطريق الذي ستمشين فيه، وعند العودة عليك أن تتبعي الخطَّ الأسود هذا لتعودي من النقطة التي انطلقنا منها. فهمت؟

- فهمت، الآن دعني أقود السيارة.

قادت شذا السيارة وخرجنا نستكشف المنطقة. قال لها وليد:

- قفي هنا.

هبطنا أنا ووليد، قالت شذا:

- سأعتلي جبال الرمل وأهبط مثلما كنا نفعل عندما كنا مراهقين.

- حسنًا، ولكن حافظي على موقعنا في "الماجلان" حتى لا تضيِّعينا.

- لا تخَفْ معك رجال!

ثم دقَّت على صدرها وذهبت.

كانت المنطقة تمتلئ بالجبال الصخرية. قال عنها وليد إنها كانت في يوم من الأيام سدًّا قديمًا لمجرى ماء واد عظيم.

مع وليد صرت أخلط بين الجغرافيا والتاريخ، فلا الزمن عاد هو الزمن ولا الأرض هي الأرض. أشعر أنني دخلت مدارًا كونيًا بلا

زمن يتأرجح بي مرة نحو الماضي ومرة نحو المستقبل، يشدُّني وليد نحو الحاضر بين لحظة وأخرى، وهو يجرُّني من خصري ويقبّلني ويقول:

- يا هوه، نحن هنا!

لمعت الأرض بالعيون المرتوية بالماء حولنا. زرقتها الصافية تلمع كمرآة في بطون العيون المائية المتفرقة. من يصدّق أن هذه الألوان وهذا الماء في قلب نجد الصحراوية؟

في المدى، كان كل شيء يتنفس ويهمس بحضوره، الصخور، الماء، الجبال، الصحراء تتمدَّد حولنا في مشهد صارخ، تبدو كأنها الواقع ونحن الظلال. لأول مرة تواجهني هذه المعادلة الطبيعية على الأرض. في المدى الواسع، يتجلّى صمت الأحجار والأعشاب والوادي. السدُّ الصخري الشامخ خلفنا بَنته أيادٍ ما عادت هنا اليوم. كلما مشينا، تضاءلنا في رحاب هذا الصمت الخالد، تحوَّلنا إلى نقاط صغيرة مثل قطع الحصى البنِّية.

لون الأرض المحتشم بدا مهيبًا وطاغيًا على المكان.

أدخل وليد أصابعه في شعري، ثم توقَّف وأدارني باتجاهه. فتح عباءته البنِّية وأدخلني فيها وهو يعصر جسدي داخلها، ومثل ساحرات الحكايات النجديّة دخلت جذع الشجرة وطرت. كنت أحلِّق فأكاد أرى جنة عدن قريبة، تحتي، فيخفق قلبي من دون أن أفهم، أهو خوف أم فرح؟ في جنَّتي التي فتحت بوَّابتها ودفعت بنا

أنا ووليد، ظهر أمامي مدى واسع حيث لا سقف للعينين، تنطلق نظراتنا بلا حدود، السماء والجبال البعيدة حدود لانهائية. خرير الماء من مطر البارحة ينساب تحت أقدامنا على الأرض الصخرية. صوت الماء أعلى من كل صوت، جسور مثل رجل يتجول في بيته، يتباهى بسطوته، وكأن غروره لن يجفّ يومًا، كالأرض الرطبة، تتبعه بفرح طفلة تلعب، ولا تخاف من سطوع الشمس في الغد. هذه الحيوات من حولنا تعبّر عن نفسها بقوة أبدية في حين يخفت حضور الفناء البشري، آثار أناس مرُّوا من هنا، لعبوا، باعوا واشتروا، أحبُّوا، تزوَّجوا، أنجبوا، تقاتلوا، فرحوا، بكوا، لكنهم في نهاية المطاف رحلوا، اندثروا، غابوا، ماتوا وتركوا بقايا سرِّهم على الأرض، وعين الماء هذه ما عادت تسقيهم.

شعرتُ أن أحدًا ما حملني فتحوَّلت إلى هواء. وفيما قلبي يغرِّد بالفرح، كنت أريد أن أسأل وليد إن كان يشعر بالخفَّة ذاتها، لكنني لم أقوَ على الكلام. يدا وليد تخطفانني وتغمرانني بشلال من قُبل وحريق تحوَّل من فرط جوعي إلى جحيم.

مدَّ يده وأنهضني من أرجوحة الرمل. أرتِّب ثيابي وأنفض رمله عني. هبط قلبي من سمائه مثل طائر يهبط على قدميه، وجناحاه لا يزالان يخفقان في الهواء. بعثت حرارة يده حمَّى الوجود في جسدي، فقدَ جسدي خفَّته، شدَّتني الجاذبية الأرضية بثقلها، شعرت بارتطام قدميَّ بالأرض، كنت كمن يستفيق من حلم، أو من نشوة يسمِّيها المتصوفون "نيرفانا"، التفتُّ إليه وسألته:

- هل شعرت بشيء؟

- نعم. تمامًا كما تشعرين.

طرحتْ نسائم الهواء عن قلبي كل أوراق التوت، فانكشف ولهي وشغفي به. عيناه المكتحلتان برمشه الكثيف تنظران إليَّ بحنان ووله، سواد عينيه يسبح في أبيض رائق وسعيد، كان وهو يحدِّق بي كمن يصلِّي لله، يطلب إليه أن يحقق له أمنياته المستحيلة، نظر إليَّ من تحت الشمس وابتسم، رأى في عيني كم أنا متورطة بحبه.

قلت له:

- دائمًا يا وليد لديَّ شعور بأن الحياة لا تمنح نفسها كاملة، تمنحنا نصف ما نحتاجه من السعادة، بينما يبقى لنا نصيب من الشقاء في نصفها الآخر. كتب كازنتزاكي مرة كلامًا بهذا المعنى؛ كان يزور أثينا، تلك المدينة التي ملأته بالدهشة والسعادة، لكنه شعر بأن الشياطين أخذت تراقبه وترصَّده. ولأنه يؤمن بأن لكل سعادة ثمنًا، فقد هرع إلى السوق واشترى حذاءً ضيقًا وانتعله ليضغط على قدميه بشدة فيتألم أثناء تجواله في المدينة. لقد فضَّل أن يدفع ثمنًا يعرفه لهذه السعادة التي يعيشها بدلًا من أن يترقَّب ثمنًا غبيًا يهبط على رأسه.

استغرق وليد في الضحك وهو يسمعني. قال لي ممازحًا:

- إذن، هو من عذَّب نفسه، وليس الله.

- يا شينك يا وليد، أفسدت الصورة الجميلة بواقعيتك.

قال يضحك من سذاجتي:

- من الذي علّمك استحسان التمتع بالألم؟ أنت تشبهين أختي شذا في هذه النقطة، هذه تدعى مازوشية. الله لايحمل سوطًا ويركض وراءك! لماذا تشغلين نفسك بترقُّب أخطائك وهفواتك؟ أنت يا هند امرأة رائعة، وكل ما تفعلينه هو تعبير عن هذه الروعة، فهل أخبرك أحد بعكس هذا؟

- لم يقل لي أحد من قبل إنني رائعة! كانت أمي ترى أن البنات سبب همومها وقلقها الليلي، وكان منصور يصنفني ضمن زمرة الحريم ناقصات العقل والدين، وإبراهيم ينظر إليَّ بتوجُّس كلما مررت بجانبه، وكأنني الشيطان بعينه. حتى أبي كان ينظر إليَّ بشفقة وكأنني عصفور جريح يحتاج دائمًا لقفص حتى لا تأكله القطط، فلماذا لا أدين نفسي يا وليد؟

- لكنني أراك رائعة! هل تسمعينني جيدًا؟ تذكَّري هذا دومًا.

- أنت فقط من يؤمن بأنني امرأة مستقلة تفكر، تتحدث وتحب؛ لهذا فإن تلك الروعة التي تراها هي صورتك في مرآتي حيث تصفو المرآة.

(٢٣)

جاءت أختي الوسطى مشاعل لزيارتنا. أختي التي أحبتني بولهٍ لا مثيل له. كنت أختها وصديقتها، نلعب معًا، ونطبخ معًا، ونتلقَّى الضربات معًا. كانت تحجب أسراري عن أمي، وتدفع معي ثمن أخطاء لم ترتكبها، فأمي لم تكن تصدق أبدًا أنها لا تعلم شيئًا عن تصرفاتي، حتى لو كانت بالفعل لا تعلم شيئًا عنها، إذ يكفي أن أخطىء حتى تتورط معي. تزوجت مشاعل من قريب لنا، أحبته عبر الرسائل، لكن إثمًا عارمًا كان يلاحقها لأن مدرِّسة الدين في فصلها كانت تذكِّر البنات كل يوم أن الله لا يسامح الفتيات اللاتي ينقَدن لمكائد الشيطان وأحابيله تحت مزاعم الحب والهيام، وأن الحب ما هو إلا مصيدة للفتيات تقود إلى حمل السفاح. لهذا تزوجت أختي مشاعل من حبيبها الورقي في الصف الأول الثانوي، ثم تركت المدرسة؛ انشغلت بحياتها الملأى بالوحم والولادات المتكررة. أنجبت ستة أولاد في سبع سنوات لأن زوجها يرى أن تحديد النسل أمر محرَّم وأن المرأة الولود هي عنوان فراش جيد وبطن قوي، والأبناء يأتون ويأتي رزقهم معهم. مشاعل تزورنا كل يوم خميس فقط، وهي ترتدي القفازات السوداء،

والجوارب السوداء، وجهها متعب على الدوام ومرهق؛ فأطفالها متطلِّبون، وهي تخاف إن التفتت إلى تلبية مطالبهم وأهملت زوجها أن يفكر بالزواج بأخرى. مشاعل تنظر لنا أنا وأختي عواطف نظرة المشفق على حالنا، لأننا ضائعتان في الذنوب وبعيدتان عن رحمة الله، والملائكة لا تدخل غرفتنا الممتلئة بالصور والتماثيل الصغيرة والأغاني.

جلبت لي في زيارتها اليوم سفينة الإنقاذ التي ستصلح من شأني. لوَّحت لي والدتي بالخيط في أوَّل الحديث:

- مشاعل جايبة لك عريس.

رنَّ هاتفي الجوَّال، خرجت من صالة البيت لأردَّ، كان وليد على الخط، قال:

- سأذهب الآن إلى المطار وأحببت أن أسمع صوتك قبل أن أطير.

- سأراسلك عبر الـ "إيمايل"، انتبه لنفسك.

عدت إلى الصالة، صمتت مشاعل، قالت والدتي:

- النقيب بدر زميل زوج مشاعل، زوجته لا تنجب، وهو يطلبك للزواج.

يبدو أن والدتي لا تستسلم. قرَّرت أن تقود انقلابًا جديدًا في حياتي تستعين فيه بنقيب. سألتها:

- وهل يعرف سيادة النقيب أنني أعمل في مستشفى؟

- وما حاجتك إلى العمل بعد الزواج؟ ثم إنّ الرجل يريد أولادًا، يعني ستكونين مشغولة بالأولاد.

نظرت إلى مشاعل نظرة توعُّد، فأدارت وجهها عني وانشغلت بإرضاع طفلها الصغير.

ركضت عواطف وهي تقفل جوَّالها وقالت:

- افتحوا التلفزيون، مبنى الأمن العام تفجَّر.

فتحنا التلفزيون فظهرت صور مبنى الأمن العام وقد تحطمت بعض أدواره، والزجاج يملأ الشوارع، والناس يتجمهرون حول المكان، وغمام من الدخان الكثيف يرتفع نحو السماء، وسيارات الدفاع المدني تملأ المكان، وصوت مشاعل يقول:

- الله يهديهم ويردُّهم إلى الطريق الصواب.

نظرت إليها عواطف وشهقت:

- الله يأخذهم ويريحنا منهم!

- لا تدعي عليهم، فهم مسلمون! لا يجوز الدعاء عليهم بل ادعي لهم بالهداية.

نظرت إلى مشاعل مستغربة، صاحت مي:

- صورة بابا!

كانت صورة منصور الذي يعمل في إحدى إدارات مبنى الأمن

العام تظهر بزيِّه العسكري مصابًا ويتلقَّى العلاج. أخذت مي تقفز كالمجنونة وتسألني:

– لماذا بابا ينزف دمًا من رقبته؟

ضربتني على كتفي وهي تصرخ. أخذتُها وركضتُ بها بعيدًا عن المشهد:

– اطمئني حبيبتي، أبوك سيكون بخير.

اتصلتُ بمنصور، لكن هاتفه الجوَّال كان مغلقًا.

مي تبكي. دخلت أمي علينا وهي تفرك يديها، قالت لي:

– حسبي الله ونعم الوكيل، اتصلي بأحد إخوته، لا بدَّ أنهم قريبون منه.

اتصلت بأخيه محمد، ردَّ على هاتفي.

– هل منصور بخير؟

– نعم هو بخير، نحن معه في المستشفى، لديه جرح في رقبته، لكن حالته مستقرة، اطمئنوا لا شيء يدعو للقلق.

– هل من الممكن أن يكلِّم ابنته؟ مي منهارة تقريبًا!

– حسنًا، لا بأس. مرّري الهاتف لها.

صرخت مي:

– بابا هل ستموت؟ ... طيّب بابا!

وأقفلت الخط.

– بابا سيأتي، قال لي. سيأخذني معه.

ذهبت تضع ثيابها في حقيبة. ظلّت طوال الليل تنتظر حتى داهمها النوم.

دقّ جرس الباب في الصباح الباكر، ركضت مي ثم عادت:

– بابا جاء!

انقبض قلبي، سمعت أمي تقول:

– إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

دخل منصور إلى بيتنا، يضع ربطة من شاش أبيض على جانب رقبته. أحضرت مي حقيبتها وجلست بجانبه لا تريد مفارقته أبدًا. قررت مي أن تحرس والدها من الموت، قالت له:

– سأظل معك يا أبي، لن أدعك تموت.

قبّل منصور يدها ورأيت دمعة تلمع في عينيه. طلب إلى أمي أن تأتي معه إلى مجلس الرجال ليتحدّثا على انفراد، ودخلا.

عندما خرجت أمي كانت عيناها أيضًا تدمعان، ذهبت إلى غرفتها، وأحضرت هي الأخرى حقيبتها. قال منصور:

- سآخذ مي وخالتي هيلة إلى قريتنا في الزلفي، لا بد أن تبتعدا عن الأخبار السيئة، صحة خالتي لا تتحمل أخبارًا سيئة.

- وهل هناك أسوأ من هذا؟!

- الله يستر.

عواطف لحقت بأمي، وعموشة ذهبت إلى قريتها، وأنا حملت حقيبتي وخرجت.

أنا أيضًا قررت أن أذهب. تكلَّمت أمي مع فهد لتخبره عن الخاطب الجديد، النقيب بدر. طلبت إليه أن يقنعني بالزواج منه، فأنا مطلَّقة وحظِّي في زواج آخر لن يزيد عن أن أكون زوجة ثانية أو لرجل أرمل عجوز. أقنع فهد أمي بأن تسمح لي بزيارته، وبأنه سيقنعني حين يجلس معي بعيدًا عن الرياض ويعود معي لتزويجي. كانت أمي مستعدة لفعل أيِّ شيء يطلبه إليها فهد من أجل أن أوافق على جنديِّها الجديد زوجًا لي. صدَّقت أمي فهد، صدَّقت أنه سيفلح بإقناعي، وصدَّقت أنّه سيعود إلى الرياض. صدَّقت أنها ستفرح مرتين، بعودة فهد وبزواجي! كل هذا سيحدث! لا بد أن يحدث! لم يكن أمامها إلا أن تصدِّق، فهي لن تستسلم لقصَّة غياب ولديها للأبد، كل شيء سيعود إلى مكانه حسب ما خططت له؛ سيعود فهد ويرعى نساءه بعد موت والده وسيزوِّجني. سيعود إبراهيم ويتزوج ويسكن معهم، وسأنتقل أنا مع زوجي الذي تظن أنني سأشتكي منه كثيرًا، لكن الزواج الثاني هو زواج أكثر استسلامًا من الأول، فالمرأة تبلغ فيه حدًا من الضعف يجعلها أكثر

لينًا واستكانة، إذ إن الزواج ليس ثوبًا يسهل خلعه كل مرة، لهذا سمحت لي بالذهاب إلى كندا.

اقتنع فهد بطلبي، رضخ لتوسُّلاتي بأن يمنحني يدًا مرة واحدة ويساعدني. قال لي:

– تريدين أن تخرجي من البلاد لتهربي معه؟

– لا، لن أهرب، أعدك. لكنني أطلب فرصة للتعرف إلى وليد بعيدًا عن جحيم الآثام التي تحوطني في كل مكان. لم أعد أعي إن كان وليد جنة أو جحيمًا، أريد فقط أن أعرفه أكثر لكي لا أدخل معه في تجربة تنتهي إلى ما انتهت إليه تجربتي مع منصور.

– حسنًا.

اقتنع فهد، وساعدني لأول مرة. لأول مرة يقبل فهد أن يتحمل شيئًا من المسؤوليات التي هرب منها دائمًا.

(٢٤)

في الصيف، تتحول الرياض إلى فرن كبير؛ الحرارة تضخُّ نيرانها من كل حدب وصوب والهواء ساكن. يعلو وجه السماء غبش من الغبار. وجه الفجر المبكر في الرياض أحمر يوقع الخوف في الصدور، الجدران تسخن في الظهيرة فتسمع صوت المكيِّفات تلهث طوال اليوم، والناس تشرب الماء البارد، وتتمدَّد تحتها، وتمتنع عن أي مجادلة تجرُّها بعيدًا عن البرودة. يعتري الناس كسل ونزق غريبان، يصبح بعضهم عنيفًا وعدوانيًا. يمكن ملاحظة ذلك في الشتائم والإشارات غير المهذبة بالأيدي التي يشهرها بعض الشباب لبعضهم، وفي الخناقات التي كانت محتملة في الشتاء، لكنها في الصيف تلسع كهاربها الجهاز العصبي وتجعل المرء يخرج عن طوره. أفكر لو أن الكهرباء أنقطعت عن هذ البنايات الطويلة في المدينة! مرت هذه العبارة كأفلام "هتشكوك" المرعبة في عقلي! تخيلت الحرارة في الصيف وهي تطبق عليها، فشعرت بالاختناق لوهلة.

سألني السائق:

- هل تطير الطائرات في هذه السماء؟! الرؤية تكاد تكون مستحيلة!

الحمرة الغربية تعكِّر صفو السماء والأضواء تشحب. توقفت السيارة أمام حاجز وضعه البوليس وترى عنده سيارات الشرطة التي تطلب من أصحاب السيارات أوراقهم الثبوتية.

طلبتُ إلى السائق أن يغلق المذياع الذي تنبعث منه أغنية سخيفة.

مرت أربع دراجات نارية يقودها أربع شبان سعوديين، وبعد لحظات قليلة مرت دورية شرطة مسرعة، ثم دورية أخرى، ثم ثالثة ورابعة.

الدوريات تغلق بعض المنافذ الغربية للطريق الدائري المؤدي للمطار، كأن مطاردة في الشارع الداخلي قد بدأت. صار هذا المشهد شائعًا في شوارع الرياض؛ فالبارحة بثت قناتا العربية والجزيرة صورة الأميركي "جونسون" الذي اختطفه أعضاء من القاعدة في الرياض، وصورة رأسه مفصول عن جسده. قتلوه انتقامًا لمقتل عبد العزيز المقرن زعيم القاعدة في الرياض. صارت المشاهد البشعة مشاهد غير محظورة، فمعظم القنوات الفضائية تتسابق على بثها.

وقفتُ أمام رجل الجوازات ومعي ورقة السماح بالسفر التي جهَّزها لي منصور البارحة. لم يدقق الموظف في الاسم، دقق فقط

في صحة الورقة، فهروب النساء من الرياض اليوم لم يعد القضية التي تشغل أذهان المفتشين، بل شُغلوا عنها بملاحقة الإرهابيين. مشيت في طرقات المطار الباردة، ورخام بهوها يلمع كأنّ أحدًا سكب على خدّه ماء يخدع الأبصار كما خدع بلقيس يوم دخلت على النبي سليمان.

تقول إحدى الروايات إنّه كان يريد أن يتأكّد من شكل قدمَي بلقيس، التي تقول الإشاعات إنهما كانتا قدمَي ماعز. لماذا قدم النساء هي محور كل الأساطير؟ أمرُّ بجانب سور الصالة العلوية، خرير ماء نوافير بهو المطار يتكسّر وسط صالات المطار المفتوحة، والأشجار المزروعة حولها تبعث في النفس نشوة ينشرح لها الصدر. ربّما هي فكرة السفر نفسها التي تدغدغ روحي.

تبث الـ "مايكروفونات" النداءات لمواعيد إقلاع الطائرات، ويتحوّل المطار إلى كوكب خارجي يوحي للمسافر بأنّه في مدار بعيد عن أهله وبلاده، وبأنّ مركبة فضائيّة ستمر وتقله. التواقيت العالمية تحيط بك في ساعات مدورة، أنظر إلى توقيتَي الرياض وتورنتو حيث سأكون.

أخذ قلبي يتبع عقارب توقيته الجديد.

الطائرات المنطلقة نحو مسارات عالمية تنشر أجنحتها لتأخذ المسافرين إلى كلّ مكان. بين المطار والرياض مسافة ضوئية مختلفة. في المطار أصبحتُ في منطقة وسطى بين الرياض والعالم، لم أعد محشورة في عباءة الرياض السوداء، ولا في شوارعها، أصبحت

في مدار فضائي يقلّص الزمن، سكّانه يتعاملون مع أجهزة تكنولوجية دقيقة من الأشعة و"الليزر" وشاشات الكمبيوتر وأجهزة اللاسلكي. كل شيء هنا خاضع للدقة، لا مجال للامبالاة أو الكسل.

برودة صالة المطار المهيبة نفثت هواءها في وجهي، أيقظتني من جولتي المكوكية، انبعث في قلبي شعور جديد بالحياة.

أخذت بعض الصحف من على حاملة الصحف من محل في السوق الحرة، وكوب "نسكافه" بعثت رائحته النفّاذة الصحو في أخاديد رأسي الذي تأخرت يقظتها قليلًا.

فتحت جريدة الشرق الأوسط. صور الحادث الإرهابي وتحليلاته تملأ الصحف، صور المنفّذين بوجوههم القتيلة الشابّة والصغيرة تملأ الصفحة الأولى، وأسماء منفّذي عملية مبنى الأمن العام تتراصُّ بجانب بعضها البعض. ظهرت من بينهم صورة شاب غزير الشعر، حليق اللحيّة، منذ رأته عيناي وثب قلبي فوق صورته! أعرف هذا الوجه، والأنف الناهض كأنف محارب يوناني، والشعر الأسود الطويل كشعر غيفارا المحارب العنيد، والعينين اللتين أسدلتا جفونهما في راحة لا نهائية، بعض وجهه مغطّى بالدم! ضربة قوية تركّزت قوّتها في بطني، تأكدتُ من أنني أعرف هذا الوجه جيدًا، الصالة تزداد برودة، وتضغط على معدتي، بدأت عيناي تطردان ذبابًا أسود... هذه الملامح أعرفها جيدًا، الدم على وجهها يشكّك بأنني أعاني صعوبة في التركيز

كالتي أجدها في كوابيسي، اختلط عليَّ الوقت، هل هو وقت صحو أو نوم؟ كششت بيدي الذباب الأسود عن عينيَّ، لكنه لم يذهب، طنينه يزداد في أذنيَّ، وأنا أجاهد كي أتأكد من أنني أعرف صاحب الصورة. هو حليق اللحية اليوم، لكن تلك الملامح أعرفها منذ كنت صغيرة. إنّه هو، إبراهيم، إبراهيم أخي! ركلة أخرى في بطني! بدأ السائل في حلقي يخنقني ويرتفع، ركضت إلى الحمَّام وسقطتُ على أوَّل كرسيّ في دورة المياه القريبة من الباب.

لم أعلم كم مرَّ عليَّ من الوقت وأنا غافية على الكرسي، ولعابي يسيل على يدي، وحموضة السائل الذي خرج من بطني يحرق حلقي، وعيناي تذرفان ماءً حارقًا. قمت إلى المغسلة، غسلت وجهي، أيقظني الماء البارد فعدت إلى واقعي الأسود، نظرتُ إلى وجهي في المرآة، لم أرَ وجهي، بل رأيتُ وجهه هو، إبراهيم، حليق اللحيّة، والدم يغطِّي وجهه وشعره، وعيناه مغمضتان في سلام لم يحلم به قَط.

تهاوى جسدي مرّة أخرى، وجدت نفسي تحت سقف المغاسل الرخامي، تكوَّمتُ من شدة شعوري بالبرد، لففت يديَّ حول صدري وأخذت أبكي.

صور تمرُّ في خاطري لا أقوى على التحكم بسيرها، كمن يتفرَّج على فيلم مصري قديم بالأبيض والأسود، ومنديله في يده، يتفرَّج، يمسح دموعه ويبكي؛ وجه إبراهيم وهو صغير، وهو يبكي لأنّ أمي ضربته، إبراهيم يبكي لأنّ أبي يجره معه، صوته وهو

ينطلق من "مايكروفون" المسجد يقرأ الموعظة من الكتاب، سؤاله يوم أسند ظهره إلى الجدار، وسؤاله عواطف: لماذا لا أحد يحبني في هذا البيت؟ ووقوفه أمام الباب يرقب جوزاء ويبتسم. صوت ماء الحمَّام، وهو يغتسل من آثامه الطويلة.

أتذكَّر أخوَّته الحميمة حين كنا أطفالًا ثم تحوُّله إلى رجل غريب عندما كبر. إذن عرف منصور قبلنا جميعًا أن إبراهيم متورط في الحادث، لهذا بدا وديعًا وأخذ أمي معه إلى الزلفي، وتركني أسافر من دون عقبات.

انهمرت دموعي ومعها الأسئلة: لماذا رحل وتركنا؟ لماذا فعل ما فعل؟ هل ظن أن أحدًا لا يحبه في البيت فهرب؟ ومن منا أحبَّه حقًّا؟ وهل أحب هو أحدًا منا ولم يبادله الحب؟ هل ظنّ أنّ هذا العالم القاسي الخالي من الحب يستحق الانتقام والذبح؟ هل قرر أن ينتمي إلى هذا العالم ويصير مثله بلا قلب؟

وجع يتنقل في جسدي ولا أقدر على تحديد مكانه. بحثت عمّا يوجعني فما عرفت له سببًا. شعور بالشفقة والأسى يوجعان قلبي: للمرّة الأولى أشعر بالشفقة على إبراهيم، أشعر بالأسى لفراقه، أشعر بوحدته في الطريق الذي اختار. زادت رغبتي الكبيرة بالهرب من هذا الواقع الذي يشبه الكابوس، شعرت أنّ بداخلي أنا أيضًا امرأة تودّ لو جنزرت نفسها بالقنابل وتخلصت من نفسها، تريد التخلص من هذا الوزن الثقيل في محيط تكرهه وتودُّ لو تضع له نهاية، بالموت أو الرحيل.

أعلن مكبِّر الصوت في مطار الملك خالد النداء الأخير لإقلاع الطائرة. كان جسدي باردًا تمامًا. درجة التكييف المرتفعة في صالات المطار حوَّلت المكان إلى ثلاجة موتى باردة. أقدام الجنود العسكرية تدق أرض المطار. شعرت أن بابًا زجاجيًا يرتفع بيني وبين الناس من حولي، أراهم ولا أحسُّ بهم، فقد تحوَّلت الأمكنة من حولي إلى متحف شمع.

وقف رجل الأمن بملابس طاقم المطار فوق رأسي، سألني:

– هل أنت على الطائرة المتّجهة إلى تورنتو؟

خفق قلبي عندما سمعت هذه العبارة، تردَّدتُ في الإجابة، فكَّرت في أن أعود، لكن أمي لا شكّ لم تعرف الأخبار بعد، سيبقيها منصور بعيدًا عنها. شاهد الرجل دموع عينيَّ الباردتين على خدِّي، قال لي:

– سلامات، هل تشكين من شيء؟

– لا.

– هل أنت جاهزة للرحلة؟

هذه هي العبارة التي كنت أودُّ سماعها تمامًا لألتقط حبل النجاة الذي تدلَّى لي من السماء، قلت له:

– نعم، جاهزة.

– إذن تفضَّلي. أوراقك لو سمحت.

مددت له كل أوراقي والخوف قد بدأ يرفع درجة حرارة جسدي، قال لي:

- لا، فقط بطاقة الصعود إلى الطائرة.

قصَّ بطاقة الصعود إلى قسمين وأعاد لي قسمًا منها، قال:

- تفضَّلي.

هبَّت رائحة السفر التي أعرفها جيدًا. لا أدري من أين تنبعث عادة، لكنّ ما إن يشمُّها جسدي حتى تنفض يداي ثقلها وتنبت الحبيبات التي يزرعها البرد على زندي بريش ناعم أسود طويل، وأسمع لخفقتها صوت خفقة جناحَي حمامة. منذ الدقيقة الأولى، يتخفَّف الجسد من ثقله، ويعاند الجاذبية الأرضية. يحملني ممرُّ الطائرة الطويل بين المقاعد، أمشي كحمامة تسبح في الفضاء، تظنّ أنّ لا أحد يراها ولا يحسُّ بها.

تحركت الطائرة بهدوء. أشارت الساعة إلى السابعة صباحًا. كانت دقيقتها الأولى تدقُّ في ساعتي مشيرة إلى خروج الساعة من صباح الرياض الأخير لتدخل في صباح السماء الأولى. طلب قائد الطائرة من طاقمها إغلاق الأبواب، وأعلن عن تحوُّل جسد الطائرة الحديدي الأبيض إلى طائر أبيض، سيرتفع بعد دقائق في جوف السماء الأولى. جلس المضيفون والمضيفات على كراسيهم، وأعلن قائد الطائرة نداءه الأخير، ثم بدأ التحليق. ارتفعت الطائرة عن الأرض. شعرت بحزام المقعد يشدُّ على خصري، وبرجليَّ

تتدليان. راودني ذلك الشعور نفسه الذي أشعر به في مدينة الألعاب؛ دغدغة تنتشر في بطني، هواءٌ خفيف يملأ رئتيَّ، روحي تنفض ثقلها، فأطير أنا أيضًا. وضعت سماعة المقعد الصوتية على أذنيَّ؛ كانت إحدى القنوات تبث أغنية لمحمد عبده: "لاح لي وجه الرياض".

أقبلت المضيفة وسألتني، وهي تشير إلى الإبريق بين يديها: قهوة؟

ابتسمتُ وعيناي تدمعان، وهززت رأسي، وأبتلعت غصّة بكائي على أخي وعلى نفسي وعلى أمّي، وشربت الجرعة الأولى في السماء الأولى من فنجان قهوتي الأول، وصوت محمد عبده يغنّي في أذنيَّ: "كفّها فله جديلة من حروف..."!

«... تطفئ عموشة رأس الفرن، ثم تسحب الدلَّة من على سطح عين الفرن الساخنة، تهدأ القهوة، ثم تسكن دائخةً وتسبح في شذا اعتصارها المكتمل. تنتشر رائحة الهال في رؤوسنا، وبِولع ينتظر كل منا دوره كي تغسل القهوة مزاجه الصباحي من خيوط أحلام البارحة العكرة، إذ ينتشي مزاجنا ويتمدّد تحت شلال حكايات القهوة المُرَّة وحبّات التمر الحلوة.

معظم حكايات هذا البيت نُسجت في جلسات القهوة؛ يتخلَّص شاربوها من قيود الوعي الصارم، وبعد الفنجان الثالث، ينهمر سرد الحكاية مرّة تلو مرّة، لكنّها ليست الحكاية ذاتها. لا تحبُّ الحكاية أن تعيد نفسها أبدًا، فالراوية المتمرِّنة لا تحب إعادة الحكاية بالتفاصيل ذاتها. فنُّ الرواية مهارة توارثها أهل بيتي، وكنت أول تلميذة تحب أن تصغي وتتعلّم فنَّ نسج الحكايات وإعادة كتابتها من جديد على الورق...»

«رواية تحوّلات المجتمع السعودي، ولا سيّما وضع المرأة». **الحياة**

«تمتلك صوتاً روائياً له حيّز مختلف وسط موجة الكتابة الروائية في المملكة».
الإمارات اليوم

بدرية البشر روائية وصحافية سعودية تكتب في جريدة الحياة. صدر لها في الرواية عن دار الساقي «الأرجوحة» و«غراميات شارع الأعشى»، وفي القصّة القصيرة «حبة الهال» و«مساء الأربعاء» و«نهاية اللعبة».



